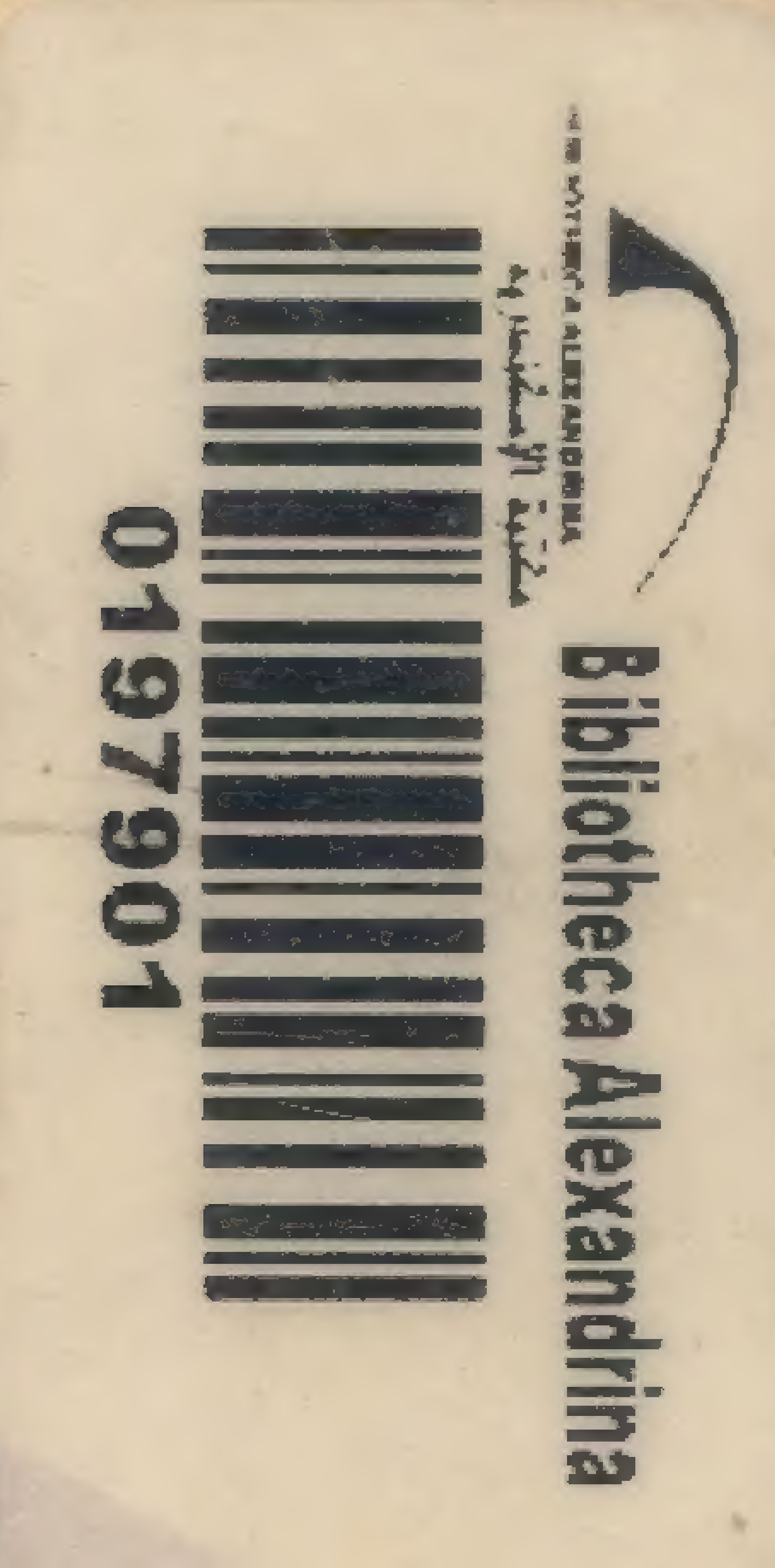
الدكتور محمد سامى الدهان

الناصر صلاح الدين الأيوبي



دار المعارف بمصر



الناصرُ
صلاح الدين الأيوبي

الدكتور محمد سامي الدهان

الناصر
صلاح الدين الأيوبي

اقرأ ٢٠٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ۲۰۷ – مارس سنة ۱۹٦۰

ألست دمشق للإسلام ظئراً ومرضعة الأبوّة لا تُعق
« صلاح الدين » تاجُك لم يجمَّل ولم يوسم بأزينَ منه فَرقُ

أحمد شوقي

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

الإهداء

إلى من يحمل رسالة صلاح الدين فى جمع شمل العرب وإنقاذ فلسطين . . .

محمد سامى الدهان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شغل صلاح الدين الأيوبى زمانه وغير زمانه . وسالت فى رسمه صفحات وصفحات بعضها بأقلام عربية وأكثرها بأقلام غربية . فقد نظر إليه العرب والمسلمون نظرتهم إلى بطل من أبطال التاريخ ، وفارس من فرسان العصور ، وسياسى من ألمع السياسيين حتى غدا رمزاً وشعارا من شعارات النضال والكفاح ، يتردد اسمه كلما عضّ الوطن العربى حادث جلل ، ووقع فى مأزق حرج ، وتكالبت عليه ذئاب الغرب . ونظر إليه الغربيون نظرتهم إلى فارس وقف فى وجه الدول الغربية ، وحارب كلّ عمره فى نصرة العرب والإسلام ، فانتصر مرة وانكسر مرة ، ولكنه كان صورة للتسامح والفروسية ، فأنشئوا فيه الكتب والدراسات كلما تحدثوا عن الحروب الصليبية فقد كان محوراً هاماً ، ودعامة أساسية ، وقلعة حصينة من القلاع التى صدت الحروب ، ووقفتها ثم دحرتها ، ومهدت

للظفر العربى والنصر الإسلامى .

وما نظن أن شرقياً شغل المؤرخين الغربيين وأذهانهم بعد النبي المعظم كما شغلهم صلاح الدين ، فقد كانت حروبه أشبه بفتوحات جديدة شبيهة بفتوحات العرب الأولى ، عبّر عنها المسلمون المعاصرون أنفسهم فى القرن السادس للهجرة بصور بارعة تشهد بصدق المقارنة ، فقال عماد الدين الأصفهانى ، يوازن بين فتوحات المسلمين وغزوات صلاح الدين : « والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر وبين فتوحه فى أول الأمر ، فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول الأمر ، والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء إلى الأرض بريد ، والعيون التى شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلّ سيوفها من أجفانها ، والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها ، ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفة وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر ،

والفرس يومئذ رغم ما استبصر . والحديد متنوعة أشكاله الرائعة . ولا طبعت سيوفه هذه القاطعة . ولا نسجت ثيابه هذه المانعة. والبروج لا تعرف إلا مشيدة لا مجلدة. والمنجنيقات لا يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لا تتراجم بالنيران المذكاة ، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة » .

وكأن العماد الأصفهانى يرى معجزة العرب لزمانه والإسلام لأيامه قريبة من معجزة العرب لأيام الرسول فى الجهاد والنضال فى سبيل الخير والدين . وهذه النظرة كانت تريب الغربيين ، وتخيف الصليبيين ، فقد كانوا يهجمون على الشرق الأدنى والعرب والإسلام فى أساليب قريبة من أساليب عصرنا ، منها الاستيلاء على خيرات هذه الربوع ، وقتل القطان العرب وتشريدهم وكسر شوكتهم ، واستخدام أراضيهم مزارع ، واستغلال بيوتهم وحصونهم ، لذلك أرعدهم وجود صلاح الدين ووقوف المسلمين وراءه فى ثياب الجهاد ، وفهم هذا البطل لهجماتهم وخطرها حق الفهم فى عمق ووعى غريبين . فتحدثوا عنه وأطالوا ، وحاولوأن يقلبوا النظر فى فهم موقف صلاح الدين وفهم الأمة لعصره ، فأخفقوا فى كثير من تقديرهم .

ونحن لا نؤلف هذه الصفحات لعرض النظريات ومناقشة الآراء ، وموازنة ما قال الغربيون وما قال المسلمون فى صلاح الدين وفى الحروب الصليبية فما تتسع لمثل ذلك . ولكننا نريد أن نصور العصر الذى نشأ فيه ، والأسباب التى دفعت الفرنجة إلى الهجوم والنزول بأرضينا ، ونحاول أن نرسم حياة الرجل وأسلوب تفكيره وطريق جهاده ، وأن نتخذ من العصر والرجل سبيلا إلى فهم عصرنا وحياتنا ومحلنا من العالم الأوربى اليوم ، وقد عاد الأوربيون بتفكيرهم فى القرن العشرين إلى ما كان عليه أجدادهم فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . يحاولون من جديد أن ينشئوا فى بلادنا ولايات مقتطعة لهم ، تحت أسماء جديدة ، ليست باسم الدين هذه المرة ، وإنما هى باسم حق إسرائيل فى ربوعنا ، يغذونها بالمال والرجال والعتاد لتكون رأس الحربة تسدد حين يريدون إلى صدر العرب والإسلام ، كما كانت عكا ، وكما كانت صور ، وكما كانت قبلهما أنطاكية .

ونحن نؤمن أشد الإيمان بأن التاريخ يتكرر أبدا ، وأن النفوس تشرب من نفوس الأجداد عزتها وكرامتها ، وترتوى بأمجادها ومفاخرها ، وتسعى جاهدة إلى تقليدها والسير على

طريقها . فالعرب فى الشام خلال القرن السادس للهجرة شربوا من تاريخ العرب فى القرن الأول للهجرة ، فليس غريباً أن تعبّ نفوسنا فى القرن الرابع عشر بعد ثمانية قرون مما كان لأجدادنا من مفاخر ومآثر . ونعتقد أن على رأسها سيرة صلاح الدين ، وأيادى صلاح الدين والقوم الذين ساروا بقيادته وتحت لوائه ، فهم أجدادنا وهم الذين كتبوا هذه الملحمة الخالدة التى نعرض لها هنا فى كثير من اليسر والبساطة والبعد عن التعقيد ، والهرب من الأرقام الكثيرة والأسماء المتعددة ، والتفاصيل البعيدة ، فنحن نستعرض من صفحات التاريخ ، ولكننا لا نكتب التاريخ ، فلذلك مصادر غير هذا الكتيب ، يحسن الرجوع إليها حين رسم المعارك فى تفصيل ، وتحديد المواقع فى دقة .

ولعلّ من أهداف هذه الصفحات أن تنير القرن السادس للهجرة أمام الأعين الشابة المتفتحة للنور من أبنائنا وبناتنا وأن توضح ما كانت عليه مصر وسورية خلال ذلك القرن من جهاد مشترك ونضال موحّد وجيش واحد وقيادة واحدة ، وأغراض واحدة . فقد وقفنا معاً بين الموت والحياة ، بين النصر والقبر ، تحملان راية القتال ، وتسيران معاً أمام

حصون العدو ، فيسقط المصرى والسورى ، وتختلط دماؤهما معاً ، وأشلاؤهما معاً ، فترويان الأرض التى نعيش عليها ، وتختلطان بالتراب الذى نودعه خيراتنا وزروعنا . فقد اشترك السكان معاً فى العرق والدمع والأسى والفرح والحزن والضحك ، وكانت قلوب كل من الشطرين تلتقى فى معركة الحياة خلال ذلك القرن كأنها فى صدر واحد ، تنبض بحركة واحدة هى الدفاع عن الوطن العربى ، فى حدوده الواسعة من أقصى أفريقية إلى حدود الفرات آنذاك ، تحت قيادة موحدة هى قيادة « صلاح الدين » ، يقيم فى القاهرة حيناً وفى دمشق أحياناً ، ولكنه كان فيما بين هذه الإقامة وهذه الإقامة يقف أمام القدس وعكا ، ويافا ، وصور ، وحلب ، والجزيرة ، وأنطاكية وغيرها من حصون الوطن العربى ، لا يبالى بعواصف الطبيعة وأمطارها ورعودها ، وشمسها وحرها ، ووعورة الأرض وجفاف الطريق ، فى سبيل الوصول إلى النصر والحفاظ على حدود العرب والإسلام ، وحماية هذه الحصون من المغيرين البزنطيين أو المعتدين الأوربيين ، أو من الأشقياء العملاء ، أو من الجواسيس الذين كانوا يعبدون المال وحده ، فيتآمرون مع الأجنبى المحتل .

ويشهد الله أننا وقفنا غير مرّة عند تسطير هذه الصفحات وقفة الدهشة والذهول ، لتقارب الأحداث بين عصر صلاح الدين وعصرنا وأحوال زمانـــه وزماننا ، حتى خفنا أن يظنّ بنا القارئ الظنون فى اتباع الخيال وركوب أجنحة الوهم ، وحتى رأينا من واجبنا أن نثبت فى ذيل الصفحات مصادرنا . ولكننا عدلنا عن هذا خوف الإملال والاتساع ، لئلا يخرج هذا الكتيب عما رسم لمثله فى هذه السلسلة . وهذه هى فائدة الصفحات التى نرسلها حيّة قريبة من الأذهان لتكون نداء لمن يحب أن يسمع صوت الحق والجهاد ، وصورة لمن يريد أن يتبصر بحالنا ومآلنا ومستقبل أمتنا .

وما لسيرة عطرة أن تثير فى نفوسنا العزة والكرامة والقوة كما تثير سيرة صلاح الدين الأيوبى ، وما لعصر مظلم خانق مضطرب بأن يوحى إلينا بالعبرة والدرس كما يوحى عصر صلاح الدين . ولهذا حرصنا على رسم السيرة فى إيجاز ووصف العصر فى اختصار .

والله الموفق للصواب والهادى إلى الخير .

الفصل الأول

العصر المضطرب

اشتهر عصر صلاح الدين الأيوبى بأنه عصر الحروب الصليبية ، فقد فتح عينيه والصليبيون فى أرجاء الوطن العربى الكبير ، وأغمض عينيه وهو يفكر فى مطاردة آخر حصونهم ، وقضى حياته كلها فى كفاح ضدهم وحرب على جيوشهم وقتال مع قوادهم . فكأن حياته صورة من صور العصر ، وكأن العصر قطعة من حياته . لذلك وجب أن نرسم الأسباب التى جعلت منه قائداً محاربا ، والظروف التى ساقته إلى حرب الصليبيين ، وحال البلاد الغربية آنذاك ، بعد أن نصف أوربة لزمانه وقبل زمانه .

إن الحروب الصليبية لم تنشأ كما يدل عليها اسمها لحماية الدين المسيحى أو الدفاع عن الصليب ، فلم يهاجم المسلمون حصون الدين ولم يحاربوا الصليب ، ولم يعتدوا على العقائد ، فقد انقضت خمسة قرون تقريباً على دخول الإسلام فى هذه

المنطقة ، وانتشر فيها وعمّ خيره وعدله ، وسادت المساواة وقامت الأخوة بين سكان سورية المقيمين وبين العرب الوافدين ، وعاش أصحاب الديانات على خير ما يعيش الناس ، واختلط المسلم والمسيحى تحت راية الحضارة ، وتجاور الذميون وغير الذميين ، فى ظل الإسلام وقوانينه ، ونبغ من هؤلاء وهؤلاء أطباء وعلماء وكتاب ، وصناع وزراع ، وساد من هؤلاء وهؤلاء وزراء وأمراء ووجهاء ، ودرجت القرون الإسلامية على المواطنين القاطنين فى هذه الربوع من غير نظر إلى عرق مفضّل أو مذهب مقدّم ، فقد كان أفضل الناس وأكرمهم من ذهب مع الخير وقام بالتقوى فى خدمة وطنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالخير والتقوى . لذلك سالت فى خدمة الإسلام والعرب أعراق وأعراق من كلّ صوب وحدب ، واشتهر من هؤلاء من خدمه جدّه ، وأعانه جهده ، ونصره جهاده ، ورفعه إخلاصه ، حتى بلغ من بلغ مرتبة الوزراة ومحلّ السلطان .

ولكن الحقّ أن هؤلاء المواطنين كانوا حرباً على الأعداء من كل لون ، يقاتلون من خرج على إجماع المسلمين ولو كان من صميم العرب ويقاتلون من اعتدى على البلاد

الإسلامية ولو كان من أقرب الجوار . ولذلك كان يحتدم
القتال بين المسلمين والبزنطيين خلال العصور الإسلامية ،
كما كان يقع دائماً بين الدول المتجاورة . واشتد القتال منذ
القرن التاسع للميلاد وغلا فى القرن العاشر ، حتى حسب
المؤرخون أن البزنطيين يحاولون منذ ذلك العهد طرد المسلمين ،
واحتلال بلادهم ، وبخاصة حين استولى نقفور فوكاس
(فوقاس) على جزيرة كريت ومدينة أنطاكية واستخلصهما
من أيدى المسلمين ، وحين اجتاح الشميشق أراضى كليكيا
وسورية وفلسطين . وكان ذلك حين نهض بالإمبراطورية
البزنطية رجال أشداء ، طمحوا إلى المجد العتيق وأرادوا أن
يكونوا فى قومهم كما كان أبطال إسبارطة ، فأفادوا من
اضطراب المسلمين وتخاذلهم إلى دويلات وأمراء ، واغتنموا
غفلة الدهر . ولكن هذا لم يدم طويلا .

فى أواخر القرن العاشر الميلادى خرج من سهول تركستان
فئة من الأتراك ، حملوا السلاح للغزو ، ودخلوا الحروب
للمغانم وكان على رأسهم أبناء زعيم من زعمائهم اسمه «سلجوق».
واعتنق هؤلاء الأتراك دين الإسلام ، وتحمسوا للدين حماسة
الحديث العهد بالدين ، فانقلبوا من فئة إلى قبيلة ومن قبيلة

إلى أمة ــ كما يقول الكاتب المؤرخ فشر ــ ففتحوا خراسان وإيران ، وقام زعيمهم (أرطغرل) سلطانا فى بغداد سنة ١٠٥٥ م ، وأغدقت عليه الخلافة العباسية المتداعية كل ألقاب التعظيم ، وظل السلجوقيون من أتباعه يتدفقون على الشام وفلسطين بفضل (ألب أرسلان) فانتزعوهما من يد الفاطميين . ثم توجهوا بعد ذلك إلى آسيا الصغرى ، فهجموا على الدولة البزنطية وأعملوا فيها السيف ، وحصد ألب أرسلان زهرة الشباب البزنطى فى وقعة منازكرد ، شمالى بحيرة (وان) بأرمينية سنة ١٠٧١ م ، وأسر الإمبراطور نفسه ، وغدت آسية الصغرى خامدة لا حراك بها .

وهكذا غلب البزنطيون أواخر القرن الحادى عشر للميلاد غلبة لم يعرفوها من قبل على يد المسلمين ، فقد خسروا بعد وقعة منازكرد (مانزكرت) خيرة جنودهم وخلاصة قوادهم البواسل وفقدوا منطقة كانت تغذيهم بالقوى العسكرية الهائلة، من ضباط وجنود كانوا يدافعون عن الإمبراطورية خير دفاع . وغدت الدولة البزنطية بعيدة عن مناطق آسية الغنية ، وفصلت عن الأقاليم الممتعة، وأصبح السلاجقة يهددون وجودها كدولة، حين اتخذوا نيقية أولا، وقونية ثانيا عاصمة لهم .

وهذا الانكسار العسكرى بعث الفتنة والفوضى فى الإمبراطورية البزنطية ، وأصابها بشلل هدّ من أركانها ، ورماها فى وهدة عميقة من الخذلان ، وكادت تلفظ أنفاسها ، لولا قيام إمبراطور بزنطى جديد يتصل بنسب أسيوى عريق ، ويتصف بالشجاعة والدهاء والبصر والفطنة ، فنهض لتنظيم الجيش ، والدوائر الحكومية ونذر نفسه لدفع خطر السلاجقة .

وفكر هذا الإمبراطور فى طلب النجدة من الغرب اللاتينى لإنقاذ الإمبراطورية ، ونصرة المسيحية وكنائسها ، فأرسل إلى البابا أوربانوس الثانى يستنجده ، ويذكره بأن بيت المقدس ، وأنطاكية ، والرها ، غدت فى أيدى المسلمين ، وأن القسطنطينية صائرة إليهم إذا ما دام الحال على المنوال ، وهنا فتح باب الحملة الصليبية .

وهذا هو سبب قولنا إن الحروب الصليبية لم تنشأ لأن المسلمين هجموا على حصون الدين المسيحى أو لأنهم هددوا بإبطال الصليب ، وإنما نشأت بدافع سياسى هو الدفاع عن بزنطية قبل كل شىء ، ونصرة القسطنطينية الأرثوذكسية . فهى قد نبعت من القسطنطينية لا من رومة . وقد ولدت لدافع حربىّ لا لدافع دينى .

ولسنا وحدنا ممن يقول بهذا ، فقد قاله مؤرخو الأوربيين ، آمثال فشر وديورانت . وقد أراد « ديورانت » أن يصوّر العصر وأن يتحدث عن الحروب الصليبية فقال ما عبارته :

« وأول سبب مباشر للحروب الصليبية[1] هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى . وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحاً رحيما ، استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة فى ممارسة شعائر دينها ، إذا استثنينا بعض فترات قصيرة قليلة . نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمّر كنيسة الضريح المقدس(١٠١٠م) ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها » .

وهذا اعتراف صريح من كاتب غربىّ متدين بتسامح المسلمين وبعدهم عن التنكيل بالنصارى ، وهو كذلك إشارة إلى أن سبب الحروب أول الأمر كان لنصرة الدولة البزنطية عسكريا ضد السلاجقة المسلمين .

وإلى هذا السبب السياسى العسكرى سبب آخر اقتصادى

---

(١) وسبب تسمية الحروب الصليبية أن المحاربين الأوربيين وضعوا على ألبستهم علامة الصليب حين شرعوا فى الغزو .

هو الذى دفع إلى الحروب الهمجية ، وهو رغبة المدن الإيطالية (بيزا ، وجنوة ، والبندقية) فى توسيع سلطانها التجارى ، فقد أصبح البحر المتوسط حرا بعد سقوط صقلية فى أيدى النورمان ، وتخلى المسلمين عن جزء كبير من أسبانية ، وأصبح كأنه للتجارة المسيحية وحدها بل للمدن الإيطالية ، فأرادت هذه المدن أن تقضى على منافسة المسلمين لها فى هذا البحر قضاء مبرما ، فيصبح لها شرقى البحر كما أصبح لها غربى البحر . وحلمت بأن تفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع أوربة الغربية وأن تغزو آسية كما غزت أوربة ، فوضعت أسطولها البحرى تحت تصرف الغزاة الأوربيين .

هذان هما السببان الرئيسيان فى هذه الغزوات الأوربية التى دعيت « بالحروب الصليبية » فظن الناس أنها نشأت أول الأمر للدين ، وواقع الأمر أنها نشأت للسياسة العسكرية والسياسة الاقتصادية ، ثم استغلها رجال الدين .

فقد عرفنا أن إمبراطور بزنطة طلب نجدة عسكرية لاستعادة ممتلكات الدولة البزنطية فى آسية ، ولكن البابا فكر فى شيء أوسع وأهم ، وهو أنه بهذه النجدة سيجعل الكنيسة الأرثوذكسية تحت رحمته ، وأنه يوحد الكنيسة

المسيحية كلها تحت رايته ، وأنه يصبح السيد الأوحد والزعيم المفرد ، فيستولى على كنائس البزنطيين وقلوبهم وحبهم ، ويضم إلى ذلك كنيسة بيت المقدس والأراضى المقدسة . وهذه غاية بعيدة المرمى شديدة الطموح لم يكن يستطيع تحقيقها لولا طلب البزنطيين أنفسهم . فهو يستطيع أن يمر من طريق البر ببلاد أصبحت صديقة له ، بل إنها تطلب منه المزور والنجدة ، فيبلغ بها إلى استعادة القدس .

ولم يكن البابا يرى من تناقض بين المطلبين فهو يستطيع أن ينجد البزنطيين ويستطيع أن يستعيد القدس ، ولكن إنقاذ الأراضى المقدسة موضوع يثير الحماسة ، ويبعث الأخيلة فى الفروسية الأوربية ، ويذكى فى نفوس أمراء الإقطاع وقراصنة النورمان حبّ القتال فى سبيل العقيدة المقدسة . لذلك ألحّ فى خطبه على الدين ، وشمر فى طوافه بشمالى إيطالية وجنوبى فرنسة ، وجمع آلاف الناس يندد بالمسلمين فى ظاهر الأمر ، وهو فى باطنه يريد أن تعود رومة حاضرة العالم .

ولعل الذين ساروا تحت لواء البابا فهموا مرماه ، وعرفوا أنهم بهذه النصرة والنجدة يضمون الإمبراطورية البزنطية إلى

جانبهم ، فلم يكن من سبيل قبل ذلك إلى ضمها وجمعها إلى صفوفهم ، فهى دولة معادية تقف أمام التبشير الكاثوليكى. والسبيل الأوحد لذلك كان فى خلع الإمبراطور البزنطى وفتح القسطنطينية بالقوة . ولكنها الآن تفتح الباب للقصاد البابويين ، وترضى بأن يكون البابا حكما فى الأمور الناشبة عند الخلاف ، فهى تسمح للسلطان الكاثوليكى بالتغلغل فيها والتدخل فى أمورها ، ودخول بلادها والانتفاع بحصونها ، كل ذلك طمعاً فى النجدة المرجوّة .

ولا بد هنا من الإشارة إلى نجاح البابا فى دعوته ، وإلى اندفاع الجنود تحت رايته ، فقد وعد المشتركين فى الغزوات وعودا مغرية وقدم الفوائد المدهشة . وعد بغفران الذنب ، وإعفاء سكان المدن من الضرائب ، وتأجيل ديون المدينين ، وتخفيف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم . ولكنه انضم إلى الجنود رجال سئموا الفقر ، ومغامرون يحبون الجرأة والخيال ، وتجار يبحثون عن أسواق ، وفرسان غادر أرضيهم أرقاؤها فأصبحوا بلا عمل .

وكان أن انضم الأشراف إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة . وهم الذين وفدوا فى

أول حرب صليبية ، فأصبح الشرق إلى اليوم إذا ذكر غربيّ أوربة سماها (بلاد الفرنجة) وإذا ذكر حرب الصليبيين سماها (حرب الفرنجة) . وعلى ذلك جرى مؤرخو العرب فلم يذكروا فى الغالب إلا هذا الاسم . ولعل بعضهم قد فطن منذ زمن بعيد إلى إغفال اسم (الصليبيين) فى عباراته لئلا يختلط الأمر على الناس ، ولئلا يظن بعض المواطنين فى البلاد العربية بأن الصفة تصيبهم بضرر أو ترادف . فالعرب المسلمون كانوا يفرقون بين المسيحية والصليبية ، بل يفرقون بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب ، وكانوا على وعى عظيم وفهم عميق لا يشبهه فهم الغزاة الأوربيين .

ولقد شهد مؤرخو الأوربيين بأن الجموع الصليبية القادمة من الغرب كانت على فقر فى الثقافة والأخلاق والترف يجهلون كل شىء حتى أبسط مسائل الصحة والترتيب والنظام . وأنهم دلوا على أخلاق منحطة منذ الحرب الأولى ، فقد عمدوا إلى السلب والنهب واقتراف الجرائم والآثام .

ولكن هذا كله لم يمنع من وصول الجموع الصليبية إلى آسية الصغرى ، فاستطاعت أن تحاصر أنطاكية وأن تستولى عليها ، وأن تسير إلى الجنوب فتستولى على القدس .

وأنها إلى ذلك كله استطاعت أن تؤسس إمارات لاتينية فى الشرق ، فى قلب البلاد الإسلامية ، وأن تغلب السلاجقة الأتراك على أمرهم ، وأن تصيب المسلمين بانكسارات فى عقر دارهم . .

ورغم الانتصارات والانكسارات التى نتحدث عنها بعد قليل ، فقد انتصر الغزاة اللاتينيون بفضل البزنطيين ، وانتصر البزنطيون بفضل اللاتينيين ، فانكسر السلاجقة ، وأبعدوا عن نيقية ، وعادت إلى بزنطية أملاك غنية ، وولايات واسعة . ودلت الحروب الصليبية أن المهاجمين الأوربيين كان أكثر همهم أن ينشئوا دولا لأنفسهم فى قلب العالم الإسلامى ، وقد ساعدهم على ذلك حال الدول الإسلامية آنذاك ، من انقسام وتباغض وحروب داخلية .

* * *

وذلك أن الصليبيين حين قدموا إلى الشرق كانت البلاد الإسلامية موزعة متفرقة ، وكانت سورية مقسمة بين عدد من الأمراء السلجوقيين المختصمين المتناحرين ، فلم ينهض أحد لنجدة الأمير ياغى سيان صاحب أنطاكية . ومنها

بسط الصليبيون سلطانهم على شمالى سورية . واتخذ بغدوين إمارة « الرها » واستقل بها . واستولى غيره على طرابلس الشام ، كما سقطت القدس فى يد ملك آخر صليبى ..

وكان على الموصل عماد الدين زنكى التركى ، وكان مؤدباً أول الأمر للأميرين السلجوقيين ألب أرسلان وفروخشاه وأصبح لقبه بالتركية (أتابك) ملازماً له. وكان جندياً شجاعاً وسياسيا بارعا وإدارياً حازماً ، فاستطاع أن يوسع رقاع ملكه ، وضم إليه الجزيرة الفراتية . وانتصر على الفرنجة فانتزع الرها من أيديهم .

ولما مات عماد الدين سنة ١١٤٦ م اقتسم ولداه ملكه . فأخذ أكبرهما سيف الدين غازى الموصل والجزيرة . واستولى أصغرهما (نور الدين محمود) على سورية وجعل حلب قاعدة ملكه . ويبدو أن نور الدين ورث عن أبيه شجاعته وسياسته وحكمته ، فراح يتصرف تصرف العاقل العادل نحو رعيته وملكه ، فخفف عن كاهل رعيته أعباء الضرائب ، وحصن بلاده ، ودعم الحصون والمراكز الحربية ، ورعى دور الثقافة والعلم ، وشاد المساجد وعمّر التكايا والخانات وأنشأ الكليات والمستشفيات فى جميع أنحاء المملكة ، وكان يفيض على

طلاب العلم والأدباء بواسع كرمه وعظيم سخائه .

وكانت سياسة نور الدين تهدف أول ما تهدف إلى تحرير البلاد الإسلامية وطرد الصليبيين ، فنهض إلى « الرها » وقد استولى عليها الفرنجة ثانية ، فأجلاهم عنها ، وأثخن فى جنود جوسلين ، وانتقم من الخونة ، وصرع أعداءه ، فكان لانتصاره دوىّ فى أوربة ، أهاج الشعور فيها من جديد ، فهبوا لحملة جديدة استجاب لها البابا أوجانيوس الثالث ، وانضوى تحت لوائها لويس السابع ملك فرنسة وكونراد الثالث ملك الألمان سنة ١١٤٦م. ولكن الحملة منيت بالجوع والعطش والمرض . ومع هذا صممت على أن تستولى على دمشق .

وكان على دمشق آنذاك معين الدين أنر وهو أحد الأتابكة السلاجقة ، فلما وصلت الجيوش الصليبية أمام دمشق استنجد بنور الدين فى حلب ، فهرب الصليبيون ، ولحق بهم معين الدين ونور الدين ، فدكت جيوشهما حصن عريمة وحملت ريموند أسيرا إلى حلب .

ومع هذه النجدة كان معين الدين يخشى تعاظم نور الدين ويكيد لملك حلب ، مع علمه بأن الصليبيين أحق بأن يخشوا ، فوضع نور الدين حداً لمؤامراته ، وأقطعه حمص

ثم نزعها منه وأعطاه بالس . واستطاع نور الدين بفضل دهائه أن يوقع بين البيزنطيين والفرنجة ، فأقنع الأولين بأن يصونوا حدود مملكتهم وأن يلتزموا الحياد ، وألا يتورطوا فى مغامرات تفسد عليهم عيشهم وأمنهم .

وقد أنعم الخليفة العباسى على نور الدين بلقب « الملك العادل » تقديراً له على انتصاره على الصليبيين ، ووقعت فى تلك الأثناء هدنة قصيرة بينه وبين الفرنجة ، استطاع أن يعمر فى أثنائها الخرائب التى سببتها الزلازل فى بلاده .

وفى سنة ١١٦٠ ، توفى الخليفة المكتفى العباسى ، وخلفه المستنجد بالله ، وكانت مطامع نور الدين قد بلغت حدا بعيدا فى الاستيلاء على مصر ، واستخلاصها من أيدى الخلفاء الفاطميين ، الذين فقدوا كل سلطان وبلغ منهم الضعف مبلغا عظيما ، فانتقل حكمهم إلى أيدى وزرائهم يعبثون بهم ، ويضللون الشعب ، ويترددون فى الخيانة ، ولا يحجمون عن الاستعانة بالفرنج وعقد المعاهدات معهم ، والتمكين لهم فى أرض مصر ، وإنزالهم فى سواحلها مما يضر بالقضية الكبرى التى كان يدين بها نور الدين وهى تحرير الوطن العربى الكبير من الأجانب والغزاة . ولكنه عرف أنه

لن يتمكن من ذلك إلا إذا غزا مصر ، وضمها إلى ملكه ، ليأمن السواحل كلها . فليس من الحكمة فى شىء أن يظل العالم الإسلامى مقسما موزّعا بين خليفتين ، خليفة فى بغداد ، وخليفة فى القاهرة . وليس من السياسة فى شىء أن يظل الجناح الأيسر للعالم الإسلامى فى يد الفواطم الشيعة وهم على انحلال وتراخ وتفكك وعبث ودسائس ، والفرنجة يعبثون فى الإمارات والمقاطعات ، ينقلون جنودهم عن سبيل البحر على أيدى الموانئ الإيطالية والسفن الإيطالية ، تردهم الإمدادات الهائلة المتواصلة . وينكبون السكان ويقتلون الآمنين .

وقد انعقدت همة البطل نور الدين على توحيد هذه البقاع وإخضاع مصر وفاق خطة رسمها ونفذها . على أيدى رجال من أعوانه ، وعلى رأسهم « بنو أيوب » فاستطاع أن يزيل العار عن تاريخ المسلمين وأن يبدأ خطط الوحدة الكبرى بيده ، وأن يكملها بعده صلاح الدين .

الفصل الثانى

بنو أيوب

اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى نسب بنى أيوب . فقال ابن الأثير إنّ أصلهم من الأكراد الروادية . وذكر ابن واصل غير ذلك فقال : « وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد ، وتزوجنا منهم . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية » . وابن العديم روى الاختلاف حول النسب وذكر أن إسماعيل بن سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن هو الذى ادعى النسب فى بنى أمية ورمى إلى الخلافة . ونقل ابن خلكان عن ابن شدّاد مؤرخ سيرة صلاح الدين أنه سأل صلاح الدين عن هذا الاختلاف فخرج بذلك كله إلى جملة نقلها عنه وهى قوله : « ليس لهذا الأصل أصلا » .

ولعل سبب الاختلاف هو تسلسل النسب نفسه ، فقد رواه ابن خلدون فقال : « وجدهم هو أيوب بن شاذى

ابن مروان بن علىّ بن عشرة بن عوف الحميرى الدوسى ، هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم . وأدلى بشكه فى النسب وتسلسله ، كما شك فيه غيره ، فوقف عند « مروان وتساءل من هو مروان ؟ أهو الخليفة الأموىّ كما قال بعضهم ، أم هو مروان آخر . فإن أكثر المؤرخين يرددون أن صلاح الدين كان يذكر دائما مع أبيه وجده فحسب « يوسف بن أيوب ابن شاذى » ، فلا يكاد يتجاوز الجد أكثر الكتاب الذين تحدثوا عنه . بل إنهم يقفون عند شاذى ، وينكرون ما وراءه من نسب .

ونحن على هذا لا نرى فى النسب كبير أمر ، وسواء أكان كرديا فى نسبه أم غير كردى ، فإنه تحدث بالعربية وأحبّ علماءها وفقهاءها وروى أنه كان يكتب النثر ، ويرسل الشعر ، وأنه جمع حوله أفضل الكتاب والشعراء . ولعل الذين رأوا له هذا النسب الكردى إنما كان من كلمة « شاذى » ومن أقوال الناس عن نسبه الكردى . ولعل المؤرخين صنعوا له هذا النسب ووصلوه بآدم ليكون لهذا البطل نسب عريق وعز موروث ، وفخر متناقل كما نسبوا إلى الأماكن والمواقع والأعلام ، فاخترعوا واشتقوا .

بل لعل الذى دفع إلى هذا كله ، ولادة الجد شاذى فى « دوين » وهى منطقة كردية تقع فى أقصى الحدود الشمالية من كردستان . وليس من الضرورى أن يرجع حماة الأنساب إلى الأصل والفصل ليبرهنوا على شكيمة صلاح الدين وصلابته وصفاء عرقه وسمو نسبه . وليس من اللازم حتما أن ينشأ العبقرى فى أسرة متصلة الحلقات بالعظماء والعباقرة . وسكوت صلاح الدين نفسه خلال حياته كلها عن نسبه أو دفاعه عن أجداده ، أو انتسابه إليهم فى أحاديثه وأقواله هو سكوت عن هذا النسب المتكلف . فقد روى مصاحبوه وهم فضلاء مؤرخون ، منهم القاضى بهاء الدين ابن شداد ألف فيه كتابا سماه « سيرة صلاح الدين » والكاتب عماد الدين الأصفهانى ألف فى فتوحه كتابا كذلك سماه : « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وأسامة بن منقذ روى وقائعه فى كتاب سماه « الاعتبار » والقاضى الفاضل كتب له وروى رسائل كتبت عنه ، لم تنشر كلها على الناس ، وابن الأثير فى رسائل كذلك عن عهده وبعيد عهده . وليس فيها عن نسبته إلى الأكراد كبير أمر ، فلم تكن نظرية العرق والجنس آنذاك كبيرة الأهمية فى تقدير

هم الأبطال ، وفى دفاعهم عن حمى الإسلام ، وفى جهادهم ضد الكفار الغزاة . وإنما كان يهمهم ما كانوا فيه من كرب أى كرب لحصار الفرنجة وغزوهم البلاد الإسلامية ، حتى ذكر العماد الأصفهانى يصف هول الأيام التى كان يعيشها بقرب صلاح الدين، وهذا الوصف ينطبق على أيامه كلهابقوله :

« والشام الآن ، قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه ، وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف السمائة وهى للملك المعترك ، وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب، ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست . ورانت الفتن على البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الحظ الجزيل فى الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا فى فى الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشبة الصوت » .

وسوء أكان هذا الوصف ينطبق على أوائل أيام صلاح الدين أو خلال شبابه ، فهو وصف ينطبق على العصر الذى ولد فيه الفتى .

وقد قصّ المؤرخون أن « شاذى » كان له ولدان هما « أيوب وشيركوه » ولدا فى قرية « أجدانكان » أو شيخان . وأن أباهما كان صديقاً لرجل إغريقى اسمه « بهروز » ، وكان عبدا فى « دوين » وارتفع حتّى وصل إلى مركز سام فى حكومة الترك ، ثم أصبح معلما ومربيا لأولاد السلاجقة . وقد غادر « مجاهد الدين بهروز » «دوين» إلى بغداد سرّا ، وتقدم إلى السلطان مسعود بن ملكشاه فعينه محافظا لبغداد . فلما تولى المنصب بعث فى طلب صديقه « شاذى » فغادر الرجل وطنه ، واصطحب أسرته معه إلى بغداد ، وفيها أيوب وشيركوه .

وبعد حين من الزمن أقطع السلطان مسعود بن ملكشاه هذا الرجل « بهروز » ولاية تكريت بصفة التمليك ، فأناب صديقه فى أمور المقاطعة ، لما كان بينهما من صداقة وود وإكبار . وغدا « شاذى » حاكما لقلعة تكريت ، ومدينة تكريت مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب ،

بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا . وقلعتها فى طرفها الأعلى ، راكبة على دجلة ، وهى قديمة حصينة مبنية من حجر كبير .

ومات شاذى بعد ذلك ، ودفن فى تكريت ، فخلفه ابنه الكبير « أيوب » فيها ، وظل على حكمها حتى كانت سنة ٥٢٦ هـ . فصادف أن اشتبك أتابك الموصل « عماد الدين زنكى » فى حرب ضروس جنوبى تكريت ضد جيش للسلجوقيين ببغداد أسفرت عن هزيمته . فلاذ بالفرار من الميدان ، ولجأ إلى قلعة تكريت ، فى رحاب نجم الدين أيوب ، فأجاره أيوب ، وأكرم وفادته ، وهيأ له المعابر ، وسهل له عبور دجلة ، وهو يعلم أنه بذلك يسىء إلى حكومة بغداد ويفسد الأمور بينه وبينها . فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ إن المؤرخين لم يعللوا ولم يوضحوا. وكل ما قالوه إن حكومة بغداد غضبت على أيوب ، وخاف بهروز من أعمال أيوب ، ومن أخطاء أخيه أسد الدين شيركوه ، وخشى غضب السلاجقة عليه ، فأقال « أيوب » من النيابة عنه ، وأنذره بوجوب مغادرة تكريت .

وهكذا اضطرت الأسرة إلى مغادرة تكريت ليلا فى دياجير الظلام ، والحزن يخيم على أفرادها ، والمستقبل المجهول

يفتح لها ألف ريب وشك ، وفى هذه الحال من المهاجرة المفاجئة ، والتشرّد المنتظر ، ولد لأيوب ابنه « صلاح الدين » بقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م .

وقد ذكر ابن شداد هذه الولادة فقال : « كان مولده رحمه الله — على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم ، فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت . وكان والده أيوب بن شاذى رحمه الله تعالى واليا بها . وكان كريما أريحيا حليما حسن الأخلاق . مولده ببدوين ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها إلى أن ترعرع » .

القسم الأول

تحت راية السلطان محمود نور الدين

الفصل الثالث

صلاح الدين فى دمشق

٥٤١ هـ ـ ٥٥٩ هـ

ولد الفتى يوسف صلاح الدين كما رأينا فى ليلة كئيبة ، كان أبواه فيها يزمعان الرحيل عن تكريت ، ويرحلان عن عزّ منيف ومهمة عالية ، إلى مكان يلجئان إليه ، فتشاءم الأب وتطير ، وقال صاحب طبقات الشافعية فى ذلك : « وقيل إن أباه خرج من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين ، فتطيروا به . وقال بعضهم لعلّ فيه الخيرة وأنتم لا تعلمون ، فكان كذلك » . وقد ودعهم وجهاء البلد آسفين .

وانتقل الوليد مع أبويه وعمه إلى الموصل ، وكان عليها عماد الدين زنكى ، فذكر خدمة أيوب ، وما كان له من يد فى إنقاذه وإكرامه ، فأحسن إلى الرجل وأخيه ، « وأقطعهما

إقطاعات جليلة ، وترقت أحوالهما عنده . فلما فتح عماد الدين زنكى بعلبك جعل نجم الدين أيوب دزدارا — أى صاحب القلعة — فيها ، فلم يزل متوليها إلى أن قتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

وهكذا قضى الطفل سنتين فى الموصل وسافر بعدهما مع أبيه إلى بعلبك سنة ٥٣٤ ، ولبث فيها حتى أصبح فى التاسعة من عمره ، سنة ٥٤١ ﻫ .

ويشاء طالع الفتى أن يولد فى قلعة ، وأن يقضى صباه فى قلعة بعلبك ، وهى عظيمة حصينة ، تحيط بها الآثار اليونانية الرائعة ، والأعمدة الطويلة الباهرة ، فكأن التاريخ يلف الفتى من أطرافه ، وتشرب عيناه من صفحاته المجيدة ، وينشأ بين الجمال والجلال ، فى كنف أب حاكم وأسرة مرعية الجانب .

ولا شك فى أن الصبى تلقى العلم على عادة أهل زمانه عن معلمين وفدوا إلى بيت أبيه ، أو انتقل إليهم ، فتعلم الكتابة والقراءة كما تسمح السن فى التاسعة لذلك . فلما قتل عماد الدين ، راسل حاكم دمشق مجير الدين أبا الفتى فى أن يسلم بعلبك مقابل إقطاع جليل فى دمشق ، فأجاب

إلى ذلك ، وترك بعلبك ، وحمل ابنه وأسرته إلى دمشق وتسلم الإقطاع الذى عين له ، سنة ٥٤١ هـ .

وأما عمّ الفتى « أسد الدين شيركوه » فقد اتصل بخدمة نور الدين محمود حاكم حلب وهو ابن عماد الدين زنكى ، وأصبح من أخصّ أصحابه ، وغدا مقدّما على سائر أمرائه لما عرف من شهامته وشجاعته وإقدامه فى الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتى حمص والرحبة .

وهكذا غدا والد صلاح الدين معزّزا مكرما فى الأمراء بدمشق ، وغدا عمه معزّزا كذلك فى الأمراء بحلب ، وعادت للأسرة أيامها المشرقة ، حتى أصبح أيوب قائد القواد فى دمشق وشيركوه قائد القواد بحلب .

فلما مات معين الدين أنر القيم بتدبير مملكة دمشق سنة ٥٤٤ هـ ، خلفه « أيوب » والد صلاح الدين وأضحى صاحب الكلمة فى دمشق . وذلك أن مليكها مجير الدين كان ضعيفا قليل النفوذ يستنجد حينا بالفرنج وحينا يطمعهم فى الاستيلاء عليها ، فخاف حاكم حلب نور الدين من هذا ، وأراد أن يملك دمشق لئلا تقف عثرة فى وجهه دون

قتال الفرنجة ، فأرسل شيركوه قائده لطلب دمشق سنة ٥٤٧ هـ ، فلم يشأ أيوب أن يقف فى وجه أخيه ، وأن يجرى دماء المسلمين فى سبيل ملك عارض ، فراح يفاوضه وانتهى الأمر بدخول جيوش نور الدين دمشق سنة ٥٤٩ وانتقلت هذه الحاضرة الكبيرة إلى يد قوية ، يحكمها ملك عظيم هو نور الدين ، جمع أكثر الشام إلى حكمه ، وصيره تحت رايته ، وأغدق على الأخوين أيوب وشيركوه ، وأضحى أيوب من أخص جلساء نور الدين ، وعينه حاكما لدمشق وظل فيها حتى استدعاه ولده إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ .

أما الشاب يوسف صلاح الدين ، فقد عرفنا أنه وفد مع أبيه فى التاسعة إلى دمشق وظل فيها ، تحت كنف أبيه الحاكم البطل الداهية ، يعبّ من الثقافة والمعرفة ، ويشرب من منابع الخير الثرّة الغنية . فقد كان العلماء يفدون إلى دمشق أيام نور الدين الشهيد من سمرقند فى الشمال وقرطبة فى الغرب ، فكأنها جامعة كبيرة للعلم ، أو كأنها بغداد لعصر المأمون تعجّ بالمدارس والزوايا والمساجد عامرة بالذكر والعلم . وقال ابن واصل إن نور الدين حاكم دمشق كان يجمع أهل العلم عنده للبحث والنظر ، ويستقدمهم من

البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه الفقيه قطب الدين الشافعي فبالغ فى إكرامه والإحسان عليه . وبنى دارا للحديث وأوقف عليها وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث ، كما بنى مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة . وشيد المساجد ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن وقوفا جليلة .

وإذا كانت دمشق على هذه الحال ، فقد كان أيوب أبو صلاح الدين مقربا لنور الدين ينال عنده ما لا ينال غيره فقد حكى ابن واصل كذلك قال : « وكان نور الدين إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن الأمير نجم الدين أيوب ابن شاذى رحمه الله . وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالقعود . وكان مجلسه فيما روى كصفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين والمشورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو[1] » .

وما دمنا فى سبيل وصف دمشق لأيام نور الدين ،

---

(١) ابن واصل ج ١ ص ٢٨٥ .

نريد أن نتعرف إلى الحال العلمية التى كانت آنذاك ، ولنفهم الجو الذى عاش فيه صلاح الدين ، نحبّ أن نروى قول ابن عساكر فقد وصف نور الدين وقال :

« وكان حسن الخط ، حريصاً على تحصيل الكتب الصحاح والسنن ، كثير المطالعة للفقه والحديث ، مواظبا على الصلوات فى جماعة ، كثير التلاوة والصيام والنسخ ، عفيفا متحريا فى المطعم والمشرب ، عريا عن التكبر ، وكان ذا عقل متين ورأى رصين ، مقتديا بسيرة السلف الصالح متشبها بالعلماء والصلحاء ، وروى الحديث وأسمعه بالإجازة » .

وفى هذه المدينة العظيمة دمشق ، وتحت راية هذا المليك الكبير نور الدين ، عاش يوسف صلاح الدين وتربى ، وترعرع ، وحضر مجالس نور الدين ، فأفاد من ذلك فائدة عظيمة ، وأخذ بأطراف العلم والفروسية ، فقد كانا شعار الرجال الأبطال فى ذلك الزمان .

وكان أيوب والد صلاح الدين يحبّ لعب الكرة ، ويبرع فى ركوب الخيل ، فأخذ ابنه عنه أنواع الرياضة ، كما أخذ ابنه عن العلماء دروس الفقه والحديث والنحو ، واستمع إلى الشعر والنثر ، وأعجب بالبيان الجميل ، وتعلم

القرآن ، وحفظ أشعار الحماسة فى الشعر . واستطاع صلاح الدين أن يفيد من أخلاق نور الدين ومن حبه للجهاد ، ومن سعيه فى جمع كلمة المسلمين فتعلق بذلك كله ، وغدا فيما بعد صورة عن هذا الملك العظيم ، بل أصبح أعظم سلطان بين المسلمين ، فى عصره وبعد عصره ، والفضل فى سموّه ونبوغه ، وتفوقه ونجاحه ، يعود إلى أيامه بدمشق ، وإلى تربيته فى كنف نور الدين ، فقد كانت له مدرسة كبرى ، وكان له المليك نور الدين الشهيد إماما وقائدا ومثلا أعلى ، وقديما قال ابن الأثير : « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام ، وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين » . وسنرى ما كان من صلاح الدين منذ خرج من دمشق وتفرغ للعمل ، ودخل فى الجهاد ، وأمسك بيديه القوة والسلطان ، ونفهم أثر نور الدين فيه وفى سيرته وفى أعماله .

الفصل الرابع

فى غزو مصر

٥٥٩ هـ — ٥٦٤ هـ

كانت البلاد الإسلامية فى الشرق الأوسط منقسمة إلى شطرين كبيرين ، شطر يتبع الخلافة العباسية القائمة فى بغداد ، وشطر يتبع الخلافة الفاطمية القائمة فى مصر . وكان خليفة الفاطميين فى هذه الآونة هو العاضد لدين الله ، ولكن الحكم كان لوزرائه ، يسود منهم من قهر بالسيف ، والخليفة يطيعه ، فكان الخلفاء تحت إمرة الغالبين على الحكم .

وحدث أن تغلب ضرغام بن سوّار على الوزارة وأخرج « شاور أمير الجيوش » وقتل ابنه . فهبّ شاور إلى دمشق يستنجد بنور الدين محمود ويستنصره على ضرغام ، ويعده بأن يجعل لنور الدين حصة من البلاد ، على أن يتصرف

شاور تحت أمر دمشق ونهيها واختيارها . وتردد نور الدين طويلا ، وذلك أنه كان يطمح إلى ملك مصر تقوية لملكه بالشام ، وليحصر الفرنجة بين جيشى مصر والشام ، ولكنه كان يخاف على العساكر الشامية من خطر الطريق بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية ، فهم يحكمون القدس وبعض المناطق ، ويفصلون بذلك بين دمشق والقاهرة .

واستطاع شيركوه عم صلاح الدين أن يقنع نور الدين بأن احتلال مصر يجعل القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر ، فيقع النصر ، ويطرد الصليبيون ، ووحدة القطرين تكون كارثة على الأعداء ونصرا للمسلمين ، ويتخلص العالم الإسلامى من عدو مغير نصب نفسه فى قلب البلاد العربية ، كما نصبت اليوم إسرائيل نفسها فى الموقع نفسه ، والتاريخ يعود بدروسه وعبره وظروفه وملابساته ، يفيد منه من يتعمق الأمور ويقرأ الأحداث ، ويستنتج العبر .

لذلك قرر نور الدين ضمّ مصر إليه ، فمن ضمها رجحت كفته وزادت قوته . واستخار الله سبحانه ، وقوّى

عزمه وصمم على إجابة شاور إلى ملتمسه . وتقدم إلى شيركوه (أسد الدين) بالتجهيز للمضى مع شاور . وكان شيركوه لا يبرم أمرا ولا يقدم على عمل إلا بعد استشارة ابن أخيه صلاح الدين ، كما يؤكد ابن شدّاد ، وبينهما من السنّ فارق كبير .

وهكذا سارت الحملة الشامية بقيادة أسد الدين ومعه ابن أخيه وسنه سبع وعشرون سنة ، عام ٥٥٩ ، وسار معهما نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام ليشغل الفرنج عن التعرض لأسد الدين . وتابع الجيش الشامى سيره إلى الديار المصرية فاجتاز شرقى الكرك والشوبك والعقبة والسويس وأصبح على أبواب القاهرة .

فخرج ضرغام للقائه بعساكر مصر ولكنه انهزم أمامه ولجأ إلى القاهرة فلحقه أسد الدين ، وأدركه وقتله ، وخلع على شاور ، وأعاده إلى الوزارة ، وأقام هو بظاهر القاهرة .

ولكن شاور غدر به ، ورجع عما كان وافق عليه نور الدين ، وأرسل يطلب إليه الرجوع إلى الشام ، فرفض أسد الدين ، وهنا استنجد شاور بالفرنج وخوّفهم من ملك نور الدين لمصر ، فبادروا إلى تلبيته وطمعوا فى امتلاك

مصر . فلما علم نور الدين بذلك سار بعسكره إلى بلادهم ليشغلهم عن قصد مصر ، ولكنهم صمموا على دخولها ، وجمعوا جموعهم وحاصروا « بلبيس » حيث كان أسد الدين وجنوده ، فحاصروه ثلاثة أشهر ، ثم راسلوه فى الصلح بعدما علموا أن نور الدين قصد حارم وهدّد ولاياتهم فى سورية . فرضى أسد الدين بالصلح ، وسلم ما كان بيده من البلاد إلى المصريين وعاد إلى الشام .

واتصل شاور بملك القدس من الصليبيين وسمح له بإقامة حامية صغيرة من جنده فى القاهرة خوفا من عودة نور الدين إليه ، ففضل أن يستظل بظل المستعمر الأوربى طمعا فى بقائه على الوزارة والحكم ، وأن يعيش ذليلا خائنا تحت إمرة الفرنجة لئلا يعزل من منصبه ، ورضى بأن ينصر المغيرين من أوربة ضد أبناء قومه ودينه فى سبيل مرتب زائل ووزارة هزيلة ، وكذلك يصنع مرضى النفوس والقلوب حين تنعدم فى صدورهم ضمائر الوطنية ، ومشاعر القومية وتموت فى نفوسهم كل عزة وكرامة .

وكان شاور يعرف بأن دخول الفرنجة فى مصر مناقض لشروط المعاهدة وأن نور الدين لن يرضى بذلك ، ولكنه

آثر الإيقاع بجيش الشام والمسلمين ، فقرر نور الدين إرسال أسد الدين بحملة ثانية إلى مصر ليملكها ، وسير معه جماعة من الأمراء بلغت عدتهم ألفي فارس ، وجعل معه ابن أخيه صلاح الدين ، وكان ذلك سنة ٥٦٢ هـ ، بعد ثلاث سنوات من الحملة الأولى ، لم يستقر خلالها صلاح الدين فى دمشق التى أحبها ، ولم يشأ أن يغادرها ، وقد أصبح فى الثلاثين من عمره .

وسار أسد الدين إلى مصر ، وعبر النيل ونزل الجيزة ، وتصرف فى البلاد ، وأقام فيها نيفا وخمسين يوما ، فهبّ شاور يستنجد بالفرنج ، فأتوه واجتمعوا فى صف واحد مع عساكر شاور . وغدا مسلمو الشام يحاربون مسلمى مصر فى سبيل وزارة شاور وأطماعه وخسته ودناءته ، ووقعت الحرب فانتصر أسد الدين وصلاح الدين ، وكسر الفرنج شر كسرة ، وانهزموا لا يلوون على شىء .

ومضى أسد الدين فى طريقه إلى الإسكندرية ، فسلمها أهلها إليه كرها لأعمال وزيرهم شاور ، وحباً بالشاميين ، وسعيًا وراء مذهب السنة . فاستناب على الإسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وحكم الشاب هذه المدينة

العامرة خير حكم ، وقام بأمر الدفاع عنها خير قيام حين عاد إليه الفرنج يحاصرونه ، حتى قلّ الطعام فى البلد ، وصبر أهلها ، فاضطر شاور والفرنج إلى طلب الصلح ، وبذلوا فى سبيل ذلك خمسين ألف دينار ، وقررت المعاهدة أن ينصرف الطرفان عن أرض مصر ، فعاد أسد الدين وابن أخيه إلى دمشق ، وتسلم المصريون الإسكندرية ، ولكن الفرنج تركوا حامية من فرسانهم بمصر غيلة وغدرا وخيانة من شاور .

وهذه هى المرة الأولى التى ينفرد فيها الشابّ البطل صلاح الدين بالدفاع عن مدينة كبيرة ، وبقيادة جيش كبير ، أفاد منهما كل الفائدة . وزاد عليها بأن زار بعد الصلح معسكر الفرنجة قرب الإسكندرية ، ومكث فيه بضعة أيام ، عرف خلالها الأنظمة العسكرية الأوربية ، وفهم تنظيماتهم وتعبئاتهم . وعاد إلى دمشق وفى قلبه شعور جديد وإحساس جديد ، فكأن المعركة قد غيرت من مفاهيم عيشه ووقفته على خطة جديدة ينتهجها فى المستقبل .

ولبث الشاب سنتين فى دمشق ، علم بعدهما أن ملك القدس الصليبى (أملريك) طمح فى الاستيلاء هذه المرة

على مصر ، بعد أن عرف هو الآخر عورات الدفاع ، وحال الحكم وفساد الحاكمين فيها ، واطلع من تقارير جواسيسه على واقع الانحلال والضعف فى الخلافة الفاطمية ، وانهيار السلطان فى مصر ، فاندفع إليها واستولى على كثير من مرافقها ، وسام أهلها الذل والعذاب والهوان .

فأرسل الخليفة الفاطمى رسالة يستنجد فيها بنور الدين ، وضع فيها شعور النساء المسلمات يستصرخن ضمير الإسلام ، ويستغثن بإخوانهن فى الشام فاهتز قلب نور الدين ، واستجاب للنداء ، وأمر أسد الدين بالتوجه إلى مصر ، كما أمر صلاح الدين بالسير معه . فتردد صلاح الدين لأمر لم يستطع تفسيره المؤرخون ، ولكنهما مع ذلك سارا سنة ٥٦٤ هـ ، بجيش يضم نخبة الجنود والضباط ، يبلغ عدده ثمانية آلاف هذه المرة . وسعى ملك القدس فى أن يحول بين لقاء جيشى مصر وسورية واتفاقهما على قتاله ، ولكنه أخفق كل الإخفاق ، فأخفق ورجع خائبا إلى بلده ، ودخل أسد الدين القاهرة واجتمع بالعاضد خليفة الفاطميين ، وخلع عليه ، وأجرى عليه وعلى عساكره من المال ما بعث السرور والنشاط .

ودبت البشائر فى العالم الإسلامى كله لاستنقاذ الديار المصرية من يد الفرنجة ، وكانت من أجل الفتوح وأعظمها ، فقد اتحد البلدان ، وتوحد الجيشان ، وصفت الغايات والنيات وانتصرت الآمال الوطنية .

وعرف شاور أن الأمر قد أفلت من يده ، وأن حكم مصر يكون بيد أسد الدين ، فراح يعمل الدسائس لاغتيال قواد الشام ، ولكن صلاح الدين تنبه للأمر ، فأعمل الحيلة على إخراجه للقنص والنزهة ، وانقض عليه ، وأرسله أسيرا إلى الخليفة ، فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع رأسه وتخليص البلاد من الخائن اللعين ، ونهب داره وملكه .

وحينذاك أرسل الخليفة العاضد فى طلب أسد الدين شيركوه ، وعينه وزيرا ، ومنحه لقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وكتب له بذلك منشورا ، وفوّض إليه أمور الخلافة والقيام بأعباء حفظها والذب عنها ، وأصبح يدير الحكومة المصرية .

فأقطع البلاد للعساكر التى قدمت معه ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مباشرا للأمور ، وبيده زمام الأمر والنهى بعده . فأرسل الشعراء من الشام يهنئونه على النصر

والظفر والملك . فكتب إليه عماد الدين الأصفهانى :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب

أنت الذى هو فرد فى بسالته
والدين من عزمه فى جحفل لجب

إلى أن يقول :

ردّ الخلافة عباسية ودع ال
لدعىّ فيهـــا يصادف شرّ منقلب

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
فالحزم عندى : قطع الرأس والذّنب

ولكن أسد الدين لم يطل به الأمر حتى مرض واعتل واعتراه ألم عظيم ، فمات فى هذه السنة ٥٦٤ هـ ، وكانت وزارته شهرين وخمسة أيام ، ولكنه خدم الإسلام وحارب الفرنجة عشرين عاما .

فأرسل الخليفة العاضد يستدعى « صلاح الدين » ليخلع عليه ويوليه الوزارة ، فلما حضر لقب بالملك الناصر ، وجعل دار الوزارة ، هى الدار التى كان بها عمه ، وكتب

إليه « العاضد » بمنشور ، لعله آخر منشور فاطمىّ ،
فقد انقرض أمر الفاطميين ، وانفصمت عرى دولتهم ،
وقام صلاح الدين بإحياء ملك جديد هو ملك الأيوبيين
كما نرى بعد قليل .

الفصل الخامس

حاكم « مصر »

٥٦٤ هـ — ٥٧٠ هـ

حين عهد الخليفة « العاضد » إلى صلاح الدين بالوزارة سنة ، ٥٦٤ وقف بعض الأمراء النورية موقف التردد فى الطاعة له ، فراح الفقيه عيسى الهكارى يحدّثهم فى أمره ويقرّبهم من ودّه ، ويدعوهم إلى عون صلاح الدين بمختلف الأساليب ، فبعضهم يستجلبه باسم الصلة الكردية — كما يذكر ابن واصل — وبعضهم كان يطمعه بالإقطاع والمال ، ولكنّ عددا منهم ظلّ على عناده زمنا فاختلطت آراء الأمراء ، ثم اجتمعت كلمتهم بعد ذلك . وقدمت وفود الهناء وأمداد الدعاء متواصلة على الولاء ، وثبتت قدم الملك الناصر أبى المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورسخ ملكه والخطبة على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد

الفاطمى ، وبعده للملك العادل نور الدين . فالملك فى ظاهر الأمر له ، ولكن المكاتبة كانت ترد عليه من نور الدين : « بالأمير الأسفهسلار » ومعناه مقدّم العسكر ، وكان نور الدين يكتب اسمه قبله تعظيما لنفسه ، ولا يفرده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الأسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا . .

وفهم صلاح الدين بثاقب رأيه — وهو فى الثانية والثلاثين — أن عليه أن يجمع القلوب حوله ، وأن يستميلَ الأمراء إليه ، فراح يخرج المال ويقوى الصلات ، فأحبه كثيرون ، وقويت شوكته ، وضعف أمر العاضد .

وعلم نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمدّ صلاح الدين بعسكر فيهم الملك المعظم توران شاه بن أيوب ، وهو أكبر من صلاح الدين ، وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه :

« إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه

بنفسك كما تخدمني فسر إليه وأشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » .

وهذا كلام من نور الدين يدل على شدة قلقه وبعد نظره وعظيم حرصه على حكم مصر ، فهو يرى فى صلاح الدين نائبا عنه قائما مقامه ، يتكلم باسمه ، ويمثله فى تلك الديار ، فهى فى ملكه وهو حاكم على سورية ومصر ، قد جمع شملهما معاً تحت رايته .

ولكن صلاح الدين مدّ ظله على القصر وتحكم فى البلاد وشعر كثيرون بوطأته عليهم ، وعرفوا أن سلطانهم القديم قد زال ، فأحبوا الراحة منه ، وأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه فى القاهرة ، وحينذاك يجتمعون مع الفرنج على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويقتسمون البلاد بينهم وبين الفرنج . وقام على رأس هذه المؤامرة رجل خصىّ يقال له مؤتمن الخلافة جوهر ، وأرسل ساعيا يحمل إلى الفرنج بريده ، واكتشف صلاح الدين الرسالة وما فيها ، وعمل فى القبض على جوهر ، واغتاله من مأمنه وأتى إليه برأسه سنة ٥٦٤ هـ .

وثار السود عبيد القصر لمقتله ، وكانوا يزيدون على خمسين ألفا ، ولهم محلة عظيمة على باب زويلة ، فأرسل صلاح الدين من أوقع الحريق على أموالهم وأولادهم وحريمهم ، فولوا منهزمين ، ولم يبق منهم إلاّ الشريد ، وضعف أمر العاضد وتلاشى أمره ، ولكن الخطبة ظلت باقية له ، وبعده لنور الدين ، وعرف نور الدين أن أمر الخلافة بمصر فى سبيل الزوال ، وأن الخلافة فى بغداد لا يمكن أن تقف فى سبيل أمجاده ، ولكن الصليبيين هم وحدهم مصدر القلق ، وعثرة فى طريق الوحدة الكبرى للمسلمين بل فى طريق وحدة مصر وسورية ، لذلك كان همهُ الوحيد فى إزالتهم وطردهم من القدس وغيرها .

وكان الصليبيون أنفسهم يفكرون فى الموضوع نفسه ، ويعرفون أن وحدة القطرين سبيل إلى زعزعتهم وطردهم نهائيا . فلما رأوا صلاح الدين قد تمكن من مصر ، وأزال عنها الفوضى والفساد ، واستقرت بها قدمه وعساكره النورية أيقنوا بالهلاك وخافوا ذهاب البلاد الساحلية من أيديهم فهى على خطر من هجمات المسلمين . لذلك كاتبوا إفرنج صقلية والأندلس وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم ،

فجاءتهم الإمدادات بالأموال والرجال والسلاح ، وعند ذاك اعتدوا للنزول على دمياط ، بعد أن عرفوا كره كثير من الأمراء لصلاح الدين وانصرافهم عنه إلى دمشق غيرة وحسدا .

فلما وصل الروم والفرنج دمياط من داخل البحر ومعهم آلات الحصار والمنجنيقات ، هبّ صلاح يستنجد بنور الدين ويشكو إليه ما هو فيه من المخاوف على دمياط من الخارج ، وعلى نفسه وملكه ممن وراءه من الحانقين عليه من المصريين . فجهز نور الدين العساكر وأرسلها إليه طائفة إثر طائفة ، وراح يناوشهم فى بلاد الشام ليشغلهم عن دمياط ويخفف على صلاح الدين وطأتهم ، فنجحت خطته . وحين رأوا تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة ودمشق ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا عن دمياط خائبين بعد أن أقاموا عليها خمسين يوما ، وكان رحيلهم سنة ٥٦٥ هـ . وسرت البشائر فى القلوب ، وهتف الشعراء بصلاح الدين يهنئونه على النصر العظيم ، ويتفاءلون خيرا بنكبة أسطول ملك القدس إذ تسلطت الريح فقضى عليه .

وأرسل السلطان صلاح الدين إلى نور الدين يطلب

أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهزه نور الدين بالعساكر ، وأضاف إليهم من كان يأنس بصحبة صلاح الدين ، وصحبهم فى الحراسة ليرد عنهم الصليبيين ويأمن وصولهم إلى مصر ، فــوصل أيوب وصحبه إلى القاهرة ، فى هذه السنة (٥٦٥ هـ) ، وبذلك اطمأن صلاح الدين إلى من ينصره ويدعمه فى مصر بدلا ممن تولى عنه .

ويذكر المؤرخون أنه اتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام حين قدم على ولده ووجده متملكا للديار المصرية وقال : « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وسلك صلاح الدين مع أبيه من الأدب ما جرت به عادته وفوّض الأمر كله إليه ، وحكمه فى الخزائن بأسرها ، وأنزله قصر اللؤلؤ المطل على خليج القاهرة ، ولكن أباه رفض ذلك كله تاركا لابنه سدّة الحكم .

وانصرف صلاح الدين إلى خير مصر ، فأنشأ فيها مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية . وعنى بالقضاة وتلفت إلى إكرامهم وإكبارهم .

وخرج إلى جهاد الفرنج خارج مصر ، فأغار على

الرملة وعسقلان ، وهجم على ربض غزة، ثم عاد إلى القاهرة؛ ومنها سار إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، فقد صفا له الجو ، وانتقل من مدافع ضد الفرنجة إلى مهاجم ، وأصبح يرعب الصليبيين ويقض مضجعهم ، ويخيف أسوارهم وقلاعهم ، فقد استطاع أن يوطد الأمن فى بلاده وأن يخمد الفتن داخلها ، وأن ينظم أمورها ، وأن يبسط العدل فى أروقتها ، وأن يسود الإخاء بين أفرادها ، وأن يلتفت الناس إلى مصالحهم فى طمأنينة ورخاء . والأمن فى الداخل يبعث على الثقة والقوة ويمهد للصحة والعافية فيستطيع البلد أن يقوم للدفاع عن حدوده فى ثقة وأن يرد أعداءه عن أرضه ، وأن يضمن فسادهم فى بلاده . وهكذا كان لصلاح الدين أن يتلفت إلى الأمور الكبيرة الهامة ، وأن يفكر فى السياسة العليا — كما نقول فى تعابيرنا اليوم — فقد مرض العاضد الخليفة الفاطمى ، وطال مرضه فى جسمه وفى حاشيته ، فابتعد الناس عن ذكره ونسوا ما كان من أيامه المريضة وحكمه الهزيل والفتن التى قامت فى الشعب والقصر ، حتى طمع الفرنجة فى أيامه بالملك والوطن .

فأرسل نور الدين يطلب إلى صلاح الدين فى قطع الخطبة للعاضد ، وأن يخطب للخليفة من بنى العباس فتريث فى الأمر لميل الناس فى مصر إلى العلوية ، ثم جمع مجلس شوراه وعرض عليهم طريقة العمل حتى إذا قرّ الرأى على ذلك ، أمر بقطع الخطبة للعاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسى ، فخطب الخطباء بذلك فى الأقاليم وكان العاضد مريضا ، ولم يعلمه أحد ، حتى مات فى عاشوراء من سنة ٥٦٧ هـ . وكان آخر خلفاء الفاطميين .

ولما توفى العاضد جلس الملك الناصر للعزاء ، وأظهر البكاء والحزن ، ومشى فى جنازته إلى قبره ، ثم تسلم القصر بما فيه من الخزائن والذخائر ووزع الأموال على من حوله ، وكان صلاح الدين قد وكل بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى إثر فتنة جوهر ، فضبط الأمير القصر ، لا يخرج منه شيء ولا يدخل إلا بمعرفته . فلما مات العاضد احتيط على أولاده وأهله فى موضع خارج القصر ، واحترز عليهم ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا ، وأطلقت الجوارى والعبيد . وكانت فى القصر خزانة كتب يزيد ما فيها على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس المخطوطة بالخطوط

المنسوبة ، فحمل منها إلى الشام ثمانية أحمال وترك الباقى ، وبيع بعضه . وتملك صلاح الدين الأملاك التى لهم ، وملك بعضها خاصته وأمراءه وأذن ببيع بعضها ، فعفت آثار الفاطميين بالكلية .

ولما وردت البشائر على الملك العادل نور الدين بالخطبة فى مصر للإمام المستضىء أمير المؤمنين سرّ بذلك وكتب إلى سائر الأطراف بالبشارة ، وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهانى بإنشاء بشارة تقرأ فى سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى خاصة تقرأ بحضرة الإمام فى مدينة السلام . ووصلت البشارة إلى بغداد ، فقامت الأفراح لعودة الخطبة لبغداد بمصر ، وقد انقطعت سنة ٣٥٨ هـ ، وعادت ٥٦٧ ، فكانت مدة الانقطاع ٢٠٩ سنوات .

وأرسل الخليفة يبارك نور الدين ويشكر له فى احتفال مشهور وقلده الإقليمين الشام والديار المصرية . كما أرسل الخليفة إلى صلاح الدين والأمراء من أصحابه بخلع وهدايا ، ومعها أعلام ورايات سود وهبات عباسية للخطباء ، ففرقها صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ، واستقر قدم بنى أيوب فى مصر ، وثبت لهم الملك فقال فى

ذلك عرقلة الدمشقي :

أصبح الملك بعـد آل عليّ
مشرقا بالملوك من آل شـاذي
وغـدا الشرق يحسد الغرب للقو
م ومصر تزهـو على بغـداذ
ما حـووها إلا بعـزم وحـزم
وصليـل الفـولاذ في الفـولاذ
لا كفـرعون ، والعـزيز ، ومن كا
ن بهـا كالخطيب والأسـتاذ

وأضحى صلاح الدين حاكم مصر وحده ، وسنّه ٣٧ عاما ، فراح يبني ويعمر وينشئ ويجري الإصلاحات فيها ، فأنشأ سورا حول القاهرة والفسطاط وقطائع ابن طولون ، وقلعة حصينة سميت قلعة صلاح الدين ، وبنى فيها دورا لأهله ولنفسه ، وخلف فيها آثارا جميلة تنطق بفضله وأياديه .

وعمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة المستضيء في المنابر ، وضرب النقود باسم نور الدين ، وجعل له هدية فاخرة من كنوز الخلافة أرسلها إليه تحببا

ودهاء ، وبعثا للاطمئنان ، وتظاهرا بالطاعة ، وإخفاء لما يكنه من طموح فى الاستقلال عنه ، وذرا للرماد فى العيون وقطعا للألسنة الخبيثة التى بدأت تعمل فى الكيد بين الرجلين والإفساد بين الملكين .

فقد أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الإفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ويجتمعان هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة ، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر ، وجمع نور الدين وتجهز فى انتظار خبر الرحيل ، فلما أتاه الخبر رحل من دمشق عازما على قصد الكرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر صلاح الدين . ولكن هذا أرسل إليه يعتذر عن الوصول لاختلال أحوال البلاد . والواقع أن أصحاب صلاح الدين وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فقد يدس الحانقون من الضباط على صلاح الدين و يوقعون بين السلطانين .

ومهما يكن من أمر فقد عظم على نور الدين تأخر صلاح الدين وعدم امتثال أمره ، فقرّر دخول مصر وإخراج

صلاح الدين منها خوفا من أن يشتد سلطانه، وأن يفكر فى الاستقلال عن دمشق ، وقد بسطنا مخاوفه من ذلك قبل قليل .

وبلغ هذا الخبر صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب ، وخاله ، ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم بقصد نور الدين فى أخذ مصر منه ، واستشارهم ، فتفوه بعضهم بكلمات رد عليها أيوب بكلام حكيم قال فيه : « والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا . . » وتفرقوا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين عذره ولامه على ما كان منه ، ونصحه بإظهار الطاعة لئلا يجعله أهم ما يقصده ، فيشتغل به . وقد صدق الأب الحكيم فقد بلغ نور الدين ما بلغ فانصرف عن القصد ودرجت الأيام . . . وخاصة حين عمل صلاح الدين بنصيحة أبيه ، فجمع هدايا كثيرة وألطافا عظيمة ، من ذخائر وأمتعة وآلات مثمنة ، وأوان وقطع البلور وعقود اللؤلؤ ، والمصنوعات والطيب والعطر ،

وسيرها إلى نور الدين ، وكتب معها كتابا فى الطاعة والدعاء بالنصر ، وإظهار الإخلاص ، وخرج بنفسه إلى حرب الفرنجة على الكرك والشوبك ، فنازلهما وأخرب عماراتهما وشن الغارات على الأعمال هنالك ، سنة ٥٦٨ ﻫ .

ووصلت الهدية والرسول ، فلم تقع منه بموقع فائق ، ولكنه أظهر شكره لصلاح الدين ، ورضاه عنه بعد أن قام على حرب الصليبيين ، ونفذ ما طلب إليه ، فقد كان نور الدين يرى أن البلاء عمّ بالفرنج وينبغى أن تقع المساعدة والمعاونة بالإمداد والمال الكثير لكى يستطيع أن ينفق فى سبيل الجهاد .

وفرح صلاح الدين بهذه النتيجة وسكن باله بفضل الحكمة التى أبداها أبوه ، فقد صرف عنه بلاء عظيما ووفر عليه حربا لا طائل تحتها ، وجنب المسلمين حربا أهلية بين دمشق والقاهرة ، لا يفيد منها إلا العدو المتربص على السواحل وفى القدس ، فهو يسعى إلى كسر الدولتين واستعمار الإقليمين معا ، ولكنه لا يجرؤ على القيام بذلك ما دام الشعبان معا والدولتان على وفاق ووئام ، فمتى وقع الخلف بينهما ضعف كل منهما فى الحرب الداخلية ، وأصبح العدو

وحده القوى السليم ، فهجم عليهما وابتلعهما ، وأضاع استقلالهما واستعبد شعبيهما وأذلهما شر إذلال ، وربما مكث فى أرضهما يستغلها إلى عصور لا ينهض من نيره وعبوديته مصر ولا الشام إلا بعد صبر وبلاء . وحكمة أيوب هذه درس يروى وعبرة تنقل وصفحة تسجل وسطور تقرأ ، فهى لأجيالنا وبعد أجيالنا تاريخ عاطر بالصبر والتروى والعقل والحكمة . نلوذ بها كلما عرض عارض أو وقع أمر ألجأنا إلى التفاوض ، واطرحنا المناصب والزهو والتفاخر فى سبيل خيرنا ونهضة شعوبنا وبقاء استقلالنا وعزة قومنا ، وكيد أعدائنا المتربصين بنا . وما أجمل أن نتعظ بها اليوم وأن نسير على هديها وأن نؤمن برسالتها ، فالوحدة بين الإقليمين قوة لنا وضعف لأعدائنا ، وهى نور لشعبنا ، ونار للشعوب المستعمرة ، لنستنير بنور القوة ويحترقون فى نار الحسد والغيرة والخذلان .

ولكن الأسف والأسى أصابا صلاح الدين بعد هذا ، فقد فاجأه موت أبيه نجم الدين أيوب بعد مرض قصير ، إذ سقط عن ظهر فرسه وقد تقنطر به ، وكان صلاح الدين غائبا فى بلاد الكرك والشوبك ، فلم يحضر وفاته واشتد حزنه

عليه ، وكان الأب رحيما جوادا كثير البذل حسن النية ، عظيم الرأى شديد الطموح ، مهد لابنه ولأسرته بفضل حكمته وصبره وسداد رأيه ، منذ تولى قلعة تكريت وقلعة بعلبك وقيادة الجند فى الشام ، وإمرة القواد فى عهد نور الدين ، والمشورة فى حكم مصر تحت سلطان ابنه صلاح الدين ، فكان فى مراحل عيشه كلها البطل الشجاع والوفى المخلص ، والحكيم العاقل ، ناصر عماد الدين إبان أزمته فكان بعيد النظر ، وتخلى عن بعلبك فكان فاهما لحوادث التاريخ ، ومشى مع نور الدين مشى الهوينا والصبر فى سبيل ابنه صلاح الدين فمكن له فى الأرض وهيأ له فى ملك الشام ومصر جميعا ، فكان نعم الأب ونعم السيد ، وإليه ينسب ملوك بنى أيوب جميعا ، وبه يفخرون وقد رثاه عمارة اليمنى فقال فيه :

عدمنا أبا الإسلام والملك والندى
وفارقنا فرد الزمان ووتره

فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره

رعى الله نجما تعرف الشمس أنه
أبوها ونور البدر منها وزهره

وأبقى المقـــام النـــاصريّ فإنـــه
لدولتـــكم كنز الرجـــاء وذخـــره

وخسر صلاح الدين بوفاة أبيه ركنا ركينا ومستشارا معينا . وبات خائفا يترقب هجوم نور الدين على مصر واستخلاصها منه ، فشرع فى إيجاد مملكة يقصدها ويملكها ، لتكون له عدّة فى النائبات إذا ما أخرجه نور الدين من مصر . فأمضى « قراقوش » إلى المغرب فى طائفة من الترك ، فاستولى على طرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية حتّى تونس ، وأرسل أخاه توران شاه بن أيوب إلى اليمن فتمكن من غزوها سنة ٥٦٩ هـ ، وأسر الخارجىّ فيها ، واستخرج منها الأموال الجليلة ، وأقام بها الخطبة العباسية ، وسار إلى عدن فأخذها ، وملك القلاع فيها والحصون وأحسن إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت وأمنت .

وأراد جماعة من الشيعة الوثوب بمصر وإقامة الدعوة العلوية وردها إلى ما كانت عليه ، وكان فيهم عمارة اليمنى الشاعر وغيره من دعاة وجنود من السودان ومصر ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده : وعينوا الخليفة

والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، وبذلوا لهم شيئا من المال والبلاد ، وكان قصدهم أن الفرنج إذا هجموا على مصر خرج إليهم صلاح الدين بنفسه ؛ عند ذاك يثورون بالقاهرة ويعيدون الدعوة العلوية . فأرسلوا إلى الفرنج ، وتقررت بينهم القواعد ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، ولكن الله قدر أن يفتضح أمرهم ويكتشف سرهم ، فقد دخل معهم فى سرهم الواعظ زين الدين بن نجا فاطلع على جميع أحوالهم ، ثم جاء إلى صلاح الدين وأظهره على المكيدة كلها ، فأمره بمخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون ، وتعريفه بالمتجدد من أمورهم أولا فأولا ، حتى وصل رسول الفرنج ، فضبط صلاح الدين المؤامرة وأحبطها . وقبض على الخونة ، وفشل الانقلاب كما نقول بلغتنا اليوم . وقام صلاح الدين بإفساده على خير خطة وأحكم وسيلة .

وهكذا أمر صلاح الدين بأن يصلب عمارة اليمنى مع الجماعة المتآمرين ، وأن يخدم الباقون ، وذلك سنة ٥٦٩ هـ . وسير صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق كتابا يشرح فيه القضية والخونة ، ويذكر فيه نصر الله وعونه عليهم .

ووصل كتاب صلاح الدين فى اليوم الذى توفى فيه نور الدين بدمشق ، وقد عزم الرجل على قصد مصر فيما علمنا ، واستخلاصها من يد صلاح الدين ، وأرسل إلى ولاته يطلب العساكر ليسير هو بنفسه إلى مصر ويجعلها تحت رايته خالصة ، يحكمها مع الشام ليضيق الخناق على الفرنج ، ويختم بطردهم من البلاد الإسلامية . ولكن القدر المحتوم شاء أن يقع نور الدين مريضا فى القلعة ، وأن يلبث فى منزله مشغولا بالنازلة التى نزلت به ، والناس فى شغل بالعيد والاحتفالات له ، والأطباء يترددون على منزل نور الدين بالقلعة ، يشهدون المرض الخطير يفتك به ، ويقربه خطوة بعد أخرى إلى الهلاك ، فلا يستطيعون ردًّا ولا علاجا ، فقد وقع القدر وحمّ القضاء ، وقضى نور الدين محمود الشهيد ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال ، سنة ٥٦٩ هـ ، ودفن بالقلعة مدة ، ثم نقل إلى مدرسته التى أنشأها بدمشق ، ودفن بها وقبره بها معروف .

وقد خلف نور الدين سيرة عاطرة تذكرها الأجيال شاهدة على عدله وزهده وجهاده وصدقاته وإحسانه ، فقد اجتمع له من الصفات النادرة ما يرفعه إلى مضاف

الملوك العظماء ، والساسة الدهاة ، فقد حفظ ملك الشام ، وأنقذ سورية من خلاف وفوضى ، وحماها من هجمات الفرنجة الصليبيين فكان درعها العظيم وسيفها المهاجم ، روع الغزاة المستعمرين ، وحرمهم طيب الهدوء ، ونغص عليهم البقاء ، وهدّدهم فى حصونهم وبيوتهم ، فى كل مدة غزوة ، وفى كل سانحة هجمة ، لا يكاد ينزل عن فرسه ، وقد ألفه منذ الصبا ولم يفارقه حتّى الموت ، يباشر القتال بنفسه ، ويقول : « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها » . فلا يهاب الموت فى سبيل الوطن والعروبة والإسلام . وبذلك وطد أركان الملك ، ومهّد لفتح مصر وجعلها تحت رايته ، وجمعها مع الشام فى وحدة عظيمة تقاوم الفرنجة ، وتحاربهم ، فالجيشان جيش واحد تحت قيادة واحدة ، فكان عهده بركة لسورية ومصر ، وشؤما على الفرنجة والغزاة . وفى مدرسته نشأ صلاح الدين ، وعلى أخلاقه تربى ، وبمبادئه أخذ .

ولما توفى نور الدين بكى الناس فى دمشق وتلهفوا على أيامه ، واتفق الأمراء بدمشق على ملك ولده الملك الصالح إسماعيل — وهو صغير السن لم يبلغ الحلم — وكتبوا إلى صلاح الدين فى التعزية بنور الدين ، فهو من أصحابه ونوابه ، ومن

المصلحة أن يستشار فيما يخص المملكة . وقد فعلوا ذلك لئلا يدخل دمشق ويخرجهم منها . فلما وردت الرسالة جلس صلاح الدين للعزاء ثلاثة أيام ، وأقام الخطبة لإسماعيل ابن نور الدين ، وضرب السكة باسمه ، وكتب إليه يعزيه ويقول له : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » كما قال القرآن الكريم .

واختلف الأمراء والحكام فى الشام بعد موت نور الدين ، وتولاهم الطمع فى الاستيلاء على تركته وملكه ، وكان أكبر الأمراء فى حلب هو شمس الدين بن الداية ، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصغير الصالح إسماعيل ليكون فى حلب ، فامتنع الأمراء من إرساله .

ولما بلغ صلاح الدين ما وقع كتب إليهم يذكرهم بأنه خير المقربين إلى نور الدين ، وأنه ولاه مصر وهى أعظم ممالكه لأنه لم يجد من يقوم مقامه « ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته وأجازى كلاً منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده » .

وهجم الفرنج على عادتهم مستفيدين من فرصة الاختلاف ، وساروا إلى قلعة بانياس وحصروها ، فجمع ابن المقدم قائد دمشق عساكره وخرج إليهم ولاطفهم ، ثم صالحهم على المال وعقد الهدنة معهم . فلما سمع صلاح الدين بأمر الهدنة أنكرها واستعظمها ، وكتب إلى أمراء الشام يقبح فعلهم ، ويبذل نفسه لمقارعة العدو عنهم . وهو فى هذا كله يتتبع الأخبار ويلتمس السبيل فى السير إلى الشام ليمتلك البلاد ، ويجعلها تحت حكمه ، و يوحد الإقليمين تحت رايته .

وأراد الفرنج أن يشغلوا صلاح الدين عن التفكير بملك الشام فوصل أسطولهم من صقلية ، ونزل على البر ، فحمل المسلمون عليهم ، فغرقوا المراكب والمقاتلة ، وركب السلطان صلاح الدين بعسكره إلى الثغرين الإسكندرية ودمياط ، فأحرق آلات قتالهم ، وأوسع القتل فيهم ، واقتحم عليهم البحر فولت المراكب هاربة ، وصار العدو بين قتيل وأسير وغريق ، وأخذ المسلمون من الأسلحة والمتاع والآلات ما لا يملك مثله ، وأقلع الأسطول الفرنجى عن الثغر فى مستهل المحرم سنة ٥٧٠ هـ .

ولما انتهى صلاح الدين من الفرنجة ، تلفت إلى الشام ، وأنكر على الأمراء نقل الملك الصالح إلى حلب ، وأطماع الفرنجة بالبلاد ، وتفريطهم بحقوق الوطن وبذل القطائع للغزاة ، فقال :

« أنا أحقّ بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده ، ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار فى البلاد » .


وكتب إلى أمير دمشق شمس الدين ابن المقدم يخبره بما هو عازم عليه فى جمع الشمل ، ودفع الضر ، وحماية البلاد . فوفدت عليه رسل الشام تستحثه على سرعة الحركة ، وتصريف الأمور ، وتخليص الشام من الفوضى ، فالطفل الصغير لا يستطيع أن يحمى الحمى أمام هجمات الفرنجة ، وخيانة العملاء .

فسار صلاح الدين إلى دمشق فى مستّهل صفر من سنة ٥٧٠ هـ ، ووصل إليها ، فدخلها ، ووصل إلى دار أبيه المعروفة بدار العقيقى ، وكانت دارا فى القرن الرابع الهجرى لممدوح الشاعر الغسانى المعروف بالوأواء الدمشقى . وأدرك الأمراء أن الشام غدت لصلاح الدين وأن الدولة

النورية قد انتهت ، وأن عهدا جديدا قد بدأ ، هو عهد صلاح الدين وحكمه ، وعرفوا أن هذا الشاب الصلب سيمسك بيد من حديد ملك الشام ومصر ، وهو يزحف نحو الأربعين من عمره .

القسم الثانى

السلطان المستقل عن مصر والشام



الفصل السادس

إخضاع الشام

٥٧٠ هـ - ٥٧٢ هـ

دخل السلطان الناصر صلاح الدين دمشق ، ولم يكد يستقر بها حتى استخلف أخاه طغتكين عليها ، وسار إلى حمص وتسلمها . ثم سار إلى حماة فتسلم المدينة ، وأرسل حامى القلعة رسولا إلى حلب يدعوهم إلى اجتماع الكلمة فى طاعة الملك الصالح ابن مولاه نور الدين . ثم مضى بنفسه إلى حلب فحاصرها وقاتلها أشد قتال . وركب الملك الصالح بحلب وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة يستصرخ الناس ويذكرهم بأبيه ، وأنه يتيم جاء إليه « صلاح الدين » الجاحد إحسان والده ليأخذ بلاده ، فبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه. فرأى صلاح الدين أن يعود عن حلب ، وأن يكتب إلى الخليفة ببغداد فى نصرته .

وأرسل صلاح الدين إلى الخليفة رسولا يحمل إليه رسالة يعدّد فيها ما كان له من مساع فى خدمة الدولة العباسية ، ومن جهاد ضد العدوّ ، فى أيام نور الدين . وأنه فتح مصر واليمن والمغرب وأقام فيها الخطبة العباسية ، وأنه لم تخل سنة له من غزو الفرنج برًّا وبحرا . ثم يذكر فيها تشتت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء . وأنه إن لم يفتح القدس، قوى العدو وتمدّد فى البلاد ، واتسع على المسلمين الخرق . وذلك لأنه لا يستطيع جهادهم من مصر لبعد المسافة بينه وبينهم ، وقد قدم الشام لإصلاح الأمور وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويبالغون فى ظلمه . ثم طلب من الخليفة تقليدا جامعا بمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية .

وهذه الرسالة تبين عن أهداف صلاح الدين ومطامعه ، وتعدّد أيادى صلاح الدين ومناقبه ، تكاد تكون وثيقة هامة كتبها القاضى الفاضل ، وعبر بها أحسن تعبير . فأجابه الخليفة المستضىء إلى ملتمسه وأذن له فى كل ما طلب .

واعترف لصلاح الدين جميع المسلمين ، وانهالت النجدات عليه من كل صوب ، وغدا السيد المطاع ، والحاكم العظيم ، والملك الهمام يجمع سورية ومصر ، واليمن وأفريقية . وهو أوسع ملك كان تحت إمرة سلطان لذلك الزمان ، فأسقط الخطبة للصالح وجعلها باسمه وحده .

ولا شك فى أن هذا الملك الواسع يكلّف صلاح الدين همّا كبيرا وسعيا كثيرا ، وغزوات تتابع ، ومعارك تتصل ، فهناك فجوات وثغرات ، واختلال فى بعض النواحى وضعف فى بعضها الآخر ، والصليبيون بالمرصاد يغيرون من كل جانب ، ويهجمون من كل طرف ، لذلك كثرت أخباره وتشعبت آثاره وتنوعت أياديه مما لا يحصيها كتاب وإن طال .

ولكننا سنجتزئ على المهم ، ونبسط ما يتصل بشخص صلاح الدين نمر به مسرعين من غير تفصيل أو إسهاب .

لقد سار الناصر صلاح الدين وراء القلاع والحصون يستخلصها من المتنفذين السالبين ، فاستولى على قلعتى حمص وبعلبك ، ثم جاءته الرسل من الحلبيين تطلب الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك ، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب وانتظم

الصلح ، ووقعت الأيمان ، ورحل من حلب ، وعاد إلى دمشق ، ولكن الحلبيين نقضوا العهد ، فكتب السلطان إلى أخيه ونائبه بمصر وهو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، يأمره بأن يجمع العساكر للاستعداد والخروج إلى حلب .

وسار الناصر بالعساكر متوجها إلى حلب ، وجاءه الخبر أن الحلبيين والمواصلة فى عشرين ألف فارس ، وأنهم موعودون من الفرنجة بالنجدة ، وأمدادهم متواصلة ، ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف ، فرتب عسكره ، وأطلق الحلبيون من فى الأسر من ملوك الفرنج ومنهم أرنو (أرناط) صاحب الكرك وجوسلين خال الملك ، فلم يرهبه الأمر ، وقد عرف ضعف الحكام وميلهم إلى الخيانة حين يخافون على كراسى الحكم فيتواطئون مع الأجنبي المستعمر ، وقد خبر ذلك بنفسه ، ورأى منهم فى مصر مثلما يرى فى الشام ، فأكثرهم لا يخافون فى الوطن ضميرا ، ولا يعرفون للكرامة ثمنا ، وإنما يبيعون الدنيا الزائلة بالآخرة الباقية ، فيرتزقون كما ترتزق أحط الحيوانات بالسلب والنهب والعدوان . ولذلك لم يعجب لاتفاق هؤلاء القواد

والحكام من المسلمين مع قواد الفرنجة وحكامهم ، وسيرهم في جيش واحد لقتل إخوانهم حكام المسلمين وقوادهم في الجنوب ، وإسالة الدماء البريئة من المواطنين الأبرياء في سبيل العروش والوزارات ، بدلا من بذلها ضد الفرنجة المغيرين .

ولهذا صمم الناصر على قتالهم لمعرفته بنفوسهم المريضة وتكالبهم على المادة ، وأنهم لا يقاتلون في سبيل المبادئ ، فما إن وقف لهم حتى تهاووا كالفراش حول النار ، وسقطوا صرعى وأسرى بين يديه ، ومع ذلك منّ عليهم السلطان بالحياة والحرية وأطلقهم لعلهم يشفون بعد اليوم من مرض قديم ، فهو لا يرجو تأديبهم وإنما يسعى في حماية البلاد منهم ومن أعدائه ؛ فلم يشأ أن يثخن فيهم وإنما أراد أن يقربهم منه . وضرب الناصر صلاح الدين مثلا رائعا في حرب العقيدة ، فانتصر جيشه في ستة آلاف على جيش المرتزقة في عشرين ألفا ، وذلك في موقعة تلّ السلطان ، سنة ٥٧٠ هـ .

وعلى أثر هذه الانتصارات استولى صلاح الدين على البلاد الكثيرة فأخذ منبج وبزاعة وعزاز وغيرها ، ولم يخل

من مآزق عسيرة مرّ بها ، فقد أرسل قائد حلب أحد الثائرين لقتل صلاح الدين والخلاص منه ، وكاد الناصر يقتل أول مرة ولكن الله سلم . ثم إن كمشتكين وجه شيخ الجبل راشد الدين سنان للفتك بصلاح الدين ثانية ، ولكن السلطان عرف المؤامرة هذه المرة فقبض على سنان ورجاله وأعدمهم . وهذا يدلّ على أن السلطان كان لديه جهاز واسع للمخابرات والمباحث تحافظ على حياته وتستقى الأخبار له ، فى مصر وسورية .

لذلك لما وصل الناصر إلى بلد الباطنية سنة ٥٧٢ هـ ، حاصر حصنهم مصياف ، وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أبقارهم وضرب ديارهم ، كما هجم على الفرنج حين أغاروا على البقاع فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير ، ثم عاد إلى حماة وقد استكمل الظفر .

ووصل توران شاه أخو الناصر لخدمة أخيه فى دمشق ، فسار إليه ليجتمع به فى حماة ، وتعانقا فى المخيم ، وسر السلطان بلقائه سرورا عظيما ، وسارا معا إلى دمشق ، فأنابه عنه فيها وعزم على العودة إلى مصر. وقبل العودة تزوج السلطان صلاح الدين بعصمة الدين خاتون بنت الأمير معين الدين أنر ، التى كانت زوجة نور الدين . ثم سار إلى مصر .

الفصل السابع

فى معارك الصليبيين

٥٧٢ هـ — ٥٧٨ هـ

أناب صلاح الدين أخاه الملك المعظم توران شاه بدمشق ، وخرج من دمشق إلى القاهرة . فلما استقر بداره فيها ، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم ، وهو سور طويل . وشرع فى بناء القلعة وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه ، وتضييق طريقه . وأنشأ العمارات بالقلعة ، وبنى الدور السلطانية وسكنها ، ولم يسكنها أحد قبله من أهل بيته ، وإنما كان سكناهم بدار الوزارة ، ثم استمرت السكنى بالقلعة بعد ذلك .

ثم أمر ببناء المدرسة التى عند قبر الإمام الشافعى ، كما أمر باتخاذ دار فى القصر بيمارستانا للمرضى ، ووقف عليه وعلى المدرسة وقوفا .

ثم صحب ولديه الأفضل نور الدين والعزيز عماد الدين

وسار بهما إلى ثغر دمياط وثغر الإسكندرية ، وتردد إلى الشيخ السلفى فى كلّ جمعة ثلاثة أيام ليسمعهما الحديث النبوى . وعاد بعدها إلى القاهرة يجلس نهاره لنشر العدل وإفاضة الجود وسماع حديث النبيّ — صلعم — وإشادة قواعد الشرع الإسلامى . وخرج ثانية عن القاهرة إلى « مرج فاقوس » من الأعمال الشرقية ، وخيم به لإرهاب الفرنج ، ولازم الركوب للصيد والقنص .

وقد عرف الفرنج برجوع صلاح الدين إلى مصر ، فزحفوا بجيشين أحدهما صوب الشام والثانى صوب بعلبك ، ونهبوا وسلبوا ، وخربوا القرى ، وأسروا كثيرا من المسلمين ، فنهض إليهم الناصر ، ورحل بعساكره على عسقلان فسبا وغنم ، وجمع من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم ، ثم زحف بجيشه القليل فى فلسطين حتى بلغ الرملة ، فهجم الفرنج عليه وأوغلوا فى الضرب والقتل ، وانكسر المسلمون كسرة عظيمة ، ونجا السلطان نفسه بأعجوبة ، وأسر الأمراء والقضاة ، وكان وهنا عظيما وإنكسارا مشينا سنة ٥٧٣ هـ .

وأراد الناصر أن ينتقم لجيشه ، فأعدّ جيشا قويا هذه المرة خلال ثلاثة أشهر ، ثم رحل عن مصر ، ووصل إلى دمشق

بجيشى مصر وسورية ، وأقام فيها يدير المعارك . وأرسل أخاه توران شاه إلى مصر ومعه من ضعف من الأجناد لأنها كانت سنة جدب شديد فى الشام .

وكان يغاور القلاع والحصون فطورا يقصد حصن الأحزان وهو على يوم من دمشق ، فيأسر ويغنم ، وطورا يسير إلى بانياس ويخيم على حدود بلاد العدو ، كما يخيم جنودنا الآن على حدود إسرائيل ، فالدويلة المسخ هى الدويلة التى كان الفرنجة يحتلونها على حدودنا منذ قرون ، وقد طردوا منها ليعودوا إليها ثانية فى القرن العشرين . وطورا يركب بحجة الصيد فيجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو ، وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم حتى خفّ زرع الفرنج .

ثم أجمع رأى السلطان ومن معه على أن يقتحموا على الفرنج بلادهم وأن يستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ، ثم يرجعو ، فرحلوا صوب البقاع ليلة المحرم سنة ٥٧٥ هـ ، فلما أصبحوا التقوا بالفرنج ، فأسروا فرسانهم وشجعانهم ، ووقع من الصليبيين كثير من المقدمين والأمراء ما يزيد على ٢٧٠ شخصا ، ونقلوا إلى دمشق .

وكانت عدة العدو عشرة آلاف مقاتل ، وانهزم ملكهم مجروحا .

وقصد السلطان وصحبه كذلك إلى حصن بيت الأحزان ، لتخريبه ، وكان برجا محكم البناء ، فنقبوه وأسروا من كان فيه ، وأطلقوا أسارى المسلمين ، فطلب الفرنجة الأمان وخسروا بهدم هذا البرج موقعا حصينا استراتيجيا مهما . كما قصد السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت فأغار عليها وأرجف القلوب ، ثم عاد إلى دمشق ، فهنأه الشعراء ، وطارت البشرى إلى سائر الأمصار بهذه الفتوح الجليلة ، وسار ذكر الناصر فى كل مكان وتعلق به أهل الشام كما تعلق به أهل مصر ، وعرفوا أنه حامى العروبة والإسلام ، وأنه المجاهد المخلص ، والمحارب المناضل ، وأن على يديه خلاص البلاد الإسلامية ووحدتها ، وطرد الفرنجة وقتل آخر واحد منهم .

وما يكاد السلطان يفرغ من حرب إلا ليباشر حربا أخرى ، فى الجنوب أو فى الشمال ، فهو ضد الصليبيين حول الساحل بالجنوب ، وهو فى بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون بالشمال ، يحرق القلاع ويأسر الفرسان ، ويحوى

الغلات ويملك الآلات ، ويذل العتاة المعتدين ، ويعود مؤيدا مظفرا منصورا سنة ٥٧٦ ه .

وما يعود إلى دمشق إلا ليسافر إلى القاهرة . فينتقل بين الإقليمين ويشركهما بحبه وعطفه ورعايته ، يبنى هنا ويبنى هناك ، ويشرف على الجوامع والمدارس بالشام كما يشرف عليها فى مصر ، يستخلف أفراد أسرته نوابا عنه .

وقد أراد أن يسير إلى مصر ، فاستناب بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه ، بعد أن توفى أخوه توران شاه ، فاستقبله فى القاهرة نائبه الملك العادل سيف الدين وهو أخوه . وما كاد يقر قراره فيها حتى جاءه النبأ بأن (أرنو) ملك الكرك جمع عسكره ، وحدثته نفسه بالمسير إلى المدينة المنورة للقضاء على الإسلام ، فلما سار هجم فرخشاه على بلده فنهبه وخربه ، وطال اشتباك الطرفين ، فتفرق جمع الصليبيين وعادوا عن قصدهم ، وحمى الله الحرمين من غائلتهم .

ثم جاءه نبأ آخر بأن ملك حلب إسماعيل بن نور الدين قد مات ، وأن عز الدين مسعود قد استولى عليها ، فندم السلطان على نزوحه من دمشق ، وقرر أن يعود إليها

ليكون على مقربة من الأحداث الجسام فى الشام ، فهى تتمخض أبدا بالأنباء والأخبار والحوادث لا تكاد تهدأ ولا تستقر ، وعلى الحاكم أن يسهر ليله ونهاره فى تتبع أحوالها وتسقط أخبارها ، لا يفارقها لحظة ، فكأنها مهد النشاط الدائم وموضع العمل المستمر ومصر بالنسبة إليها أشد هدوءا ، وأعظم إخلادا إلى الأمن والراحة والاستقرار .

ولذلك برز السلطان الناصر من القاهرة ، وخرج الناس لوداعه ، ومن عجيب ما ذكر ابن واصل فى الاتفاق والمصادفة أن السلطان بينما هو فى سرادقه ، والعلماء والفضلاء عنده ، وكل منهم ينشد بيتا أو أبياتا فى الوداع ، إذ أخرج أحد مؤدبى أولاده رأسه ، وأنشد :

تمتــع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عــرار

فخمد نشاط السلطان ، وانقبض انبساطه ، وجعل الجماعة ينظر بعضهم إلى بعض ، متعجبين من سوء أدب المؤدب .

ولكن الله يشاء أن يكون هذا الشيخ المؤدب ناطقا بلسان الغيب ، فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه المرة ولم يعد بعدها إليها أبدا ، فسكن دمشق وأقام بها

آخر نفس من أنفاسه .

وهكذا سار السلطان متوجها إلى دمشق لخمس مضين من المحرم سنة ٥٧٨ هـ ، وجعل طريقه على العقبة . فلما بلغها سمع باجتماع الفرنج فى الكرك لقطع الطريق ، فاحترز ، ثم سار فى شجعان أصحابه على سمت الكرك . وخرج فرخشاه من دمشق آنذاك واغتنم خلو ديارهم فأغار على طبرية وعكا ، ورجع بالغنائم ، وجاءت البشرى إلى السلطان بهذا ، فسار حتى وصل إلى دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر من هذه السنة . وهكذا كانت الطريق بين دمشق والقاهرة محفوفة بالمكاره والمصاعب يسدها عقارب الإفرنج ويملؤها قراصنتهم فى القرن السادس للهجرة كما يملئونها اليوم بثعالبهم من الصهاينة فى القرن الرابع عشر للهجرة فما أشبه الليلة بالبارحة .

الفصل الثامن

فى الشام والجزيرة

٥٧٨ هـ – ٥٨٢ هـ

عاد السلطان الناصر إلى الشام ليستأنف حروبه ضد الفرنج على مقربة من حدودهم ، فقد أخذ ملك الشام لهذا السبب ، وكأنه أراد أن يخلف نور الدين فى سيرته وفى جهاده وفى خططه وأعماله ، فكان منه فى موضع التلميذ والمقلد أول الأمر ، ثم فاقه فى كثير ، من حيث الحرب والقتال والنهوض إلى الحصون والثغور ، يقاتل الأعداء من بنى قومه والأعداء من الأوربيين ، ولا يستطيع أن يجهز على هؤلاء أو هؤلاء ، فالوضع فى الشام غريب عجيب ، فقد نشأ فى داخل البلاد خليات أجنبية تعين على الدسائس والتفرقة وتقرب الثائرين ، فهى بذلك تحارب سراً ، ثم تنقض فى الفينة بعد الفينة كلما استعادت قوتها وجمعت جموعها وبلغتها الإمدادات وزالت عنها أسباب الخلاف

فعند ذاك تحارب جهرا . ولا سبيل إلى الحرب على جبهتين كما تقول تعابيرنا اليوم ، ولذلك كان موقفا صلاح الدين ونور الدين قبله موقفاً عسيرا .

وعلى هذا وصل الناصر ٥٧٨ فهب لساعته فى الإغارة على طبرية وبيسان ، والتحم فى القتال ، وكان النصر له ولأصحابه وعاد مظفرا على الفرنجة . ولكنه سار بعد ذلك توًّا إلى حلب حين علم أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم ، فتوجه فى طريقه إلى بعلبك حيث قضى سنين عزيزة من صباه بقرب أبيه ، حين كان حاكما لها ، وخيم بالبقاع ، وقد واعد أسطول مصر أن يتجهز إلى بيروت فعلم أنه وصلها ولكن أمره يطول ، فأعاد ابن أخيه إلى دمشق ليضبط مكانه ، وسار إلى حمص فحماة ، وقرب من حلب ثم رحل يطلب الفرات ، فوصلها وخيم عليها ، ثم راح ينازل الثغور ، فملك نصيبين وزحف على الموصل ، وسنجار ، وتواترت الأنباء بأن الفرنجة قصدوا دمشق ونهبوا قراها ولكنه لم يشأ مغادرة المواقع الشمالية للشام .

فتابع حروبه ضد آمد وميافارقين ، وانحدر إلى حلب

فنازلها سنة ٥٧٩ هـ ، ثم سلمها ، ورحل عنها إلى دمشق ، وتهيأ للقاء الفرنجة . فخرج لقتالهم ونال منهم وخرب قراهم وعاد إلى دمشق . ثم سار إلى الكرك فحاصره ورماه بالمجانيق ، فخرب ديارهم وأخذ أموالهم وعاد . وسار ثانية إلى الكرك سنة ٥٨٠ هـ ، ورماها فهدم السور ، وأراد أن يطم الخندق ولكنه عاد عن ذلك بعد أن شغلته النجدات القادمة ، وقصد نابلس وفتحها .

ونريد أن يقف القارئ على هذا الانتقال من بلد إلى بلد ومن حصن إلى حصن ، وأن يتابع المسافات التى كان يجتازها هذا البطل بجيوشه من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، وهى مسافات شاسعة فى أراض وعرة المسالك ، تعسر على المسافر اليوم رغم الوسائل الحديثة ، ووسائط الانتقال فكيف بالمحارب فى ذلك الزمان ، والمهم أن الناصر كان لا يستريح من غزوة وهجمة إلا ليستأنف غزوة جديدة وهجمة جديدة خلال شهور متقاربة ، لا يرده الانكسار ولا يبطره الانتصار ، كأنه موكل بالجهاد كل أيامه .

فهو ما كاد ينتهى من معارك فلسطين حتى رجع ثانية إلى أقصى الشمال بالشام وسافر إلى حمص وحماة ،

وانتقل بعدها إلى حلب مطلع سنة ٥٨١ هـ فبادر إلى قطع الفرات ثم وصل إلى حرّان ، فرأس عين ، ثم نصيبين ، وقصد إلى الموصل ، وكان الحرّ شديدا جدا ، ودخل شهر رمضان ، فأصابه مرض عضال أزعجه وأقلقه ، ولعل ذلك لشدة الجهد ومتابعة القتال وخوض المعارك ، والدخول فى الانكسار والانتصار ، وعمره ٤٩ سنة ، فرحل عن الموصل وهو فى شدة المرض ووصل إلى حرّان ، ويئس الناس من شفاء السلطان ، ولكنه عوفى بعد ذلك ، وتم الصلح بين المواصلة والسلطان . ورحل إلى دمشق فدخلها فى ربيع الأول ٥٨٢ هـ .

وهذه الحروب فى شمالى الشام مهدت للسلام والأمن ، وأخضعت البلاد لرايته ، فخلصت الشام والجزيرة لحكمه ، وأصبح لا يفكر إلا بطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية جمعاء ، وذلك بإعلان الجهاد المقدس .

الفصل التاسع

موقعة حطّين

٥٨٣ هـ

أقام السلطان الناصر بدمشق بقية سنة ٥٨٢ هـ ، ثم عزم على الجهاد المقدس وطرد الفرنجة نهائيا ، فأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر ، فجاءته من كل فج ، ولبث يفكر فى خطة لانتزاع الولايات المسلوبة ، فقد علم أن الفرنج متنابذون متقاتلون ، يكره بعضهم بعضا ، وأن ريح الانقسام قد دبّ بينهم ، وأن كل واحد كان يغير شخصيا فى سبيل ربح مادى أو فى سبيل غاية دنيئة ، فقد انحطت أخلاقهم وسفلت طباعهم وابتعدوا عن روح الفروسية ، فقال المؤرخ فشر يصف حالهم آنذاك ، على ما فى قوله من ظلم للشرق والعرب :

« ولم تلبث روح الصرامة التى امتاز بها الصليبيون أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ،

وبعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم وتعصبهم ، إذ وجدوا بالشام مجتمعا غريبا عليهم كريها إلى حدّ ما ، بنسائه المكنونات فى الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة مجتمع أكثر وجاهة وثقافة مما عهدوا فى بلادهم ، فتولدت بين الكثيرين من زعماء العرب والصليبيين أنواع الصداقات . وهدأت شجاعة المسلمين ودماثتهم من ثائرة التعصب الدينى فى قلوب المسيحيين » .

وفى هذا القول جانب من الحقيقة فى وصف المقاتلين الفرنجة ، فقد فسدت خطتهم ، ولم ينجهم من الطرد خارج البلاد الإسلامية إلا تقاتل الأمراء المسلمين وتنابذهم وتقاطعهم واستقلالهم بعضهم عن بعض ، واستنجادهم أحيانا بالصليبيين كما رأينا فى مصر والشام . وكان أشد خطر يواجههم هو خطر الوحدة بين الممالك الإسلامية ، وسير هذه الممالك تحت راية موحدة ويد قوية عاقلة مخلصة . فلما بلوا من أخلاق صلاح الدين بمصر ما بلوا منه فى الشام ، ورأوا أن الرجل فى سبيله إلى أن يستتب له الأمر فى جمع القطرين وتوحيد الجيشين صاحوا بالويل والثبور ، وحسبوا أن أيامهم غدت معدودات .

وكان صلاح الدين يعرف سبب البلاء فى الشرق وسبب الكارثة التى ابتليت بها الشام فأراد أن يحسم الداء بسيفه فسلطه على بقاع الشام ووحدها أول الأمر ، وخضعت له من أقصى الشمال حتى العراق إلى أقصى الجنوب حتى النوبة ، وأصبح لا يرى هما له إلا طرد الغزاة وإخراجهم .

وصادف أن اعتدى صاحب الكرك (أرنو) على قافلة عظيمة من المسلمين فيها نعم جليلة ، فأخذها بأسرها ، وأسر الأجناد وحملهم إلى الكرك ، وسام المسلمين سوء العذاب والتنكيل ، وكانت بينه وبين السلطان هدنة ، فغدر ونكث ، وأصر على العصيان والفظائع ، فنذر السلطان دمه وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح مهجته ، وأقسم الأيمان على أن يقبض على (أرنو) ويقتله .

وهكذا خرج من دمشق وأقام معسكره على (بصرى) ووصل جيشه من مصر وعسكر إلى جانبه ، فسار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك ، ووصلته بقية الجيوش الإسلامية ، وقد غصّ بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان فى اثنى عشر ألف مقاتل ، ثم رتب العسكر ، وسار يوم

الجمعة ١٣ ربيع الآخر من سنة ٥٨٣ ، وأحاطت عساكره ببحيرة طبرية ففتحها فى ساعة من نهار ، وامتدت الأيدى بالنهب والأسر والحريق والقتل .

وأعدّ الفرنج جيوشهم وحشدوا جموعهم . وجاءهم الأمداد من سائر البلاد الساحلية ، فكانوا فى خمسين ألفا ، وزحف الجانبان والتقى العسكران على سطـــح جبل طبرية الغربى ، وحال الليل بين الفئتين وباتا على مصاف إلى صبيحة الجمعة ٢٤ ربيع الآخر ، فركب العسكران وتصادما إلى الليل . ثم كان السبت وقد حاز المسلمون ماء البحيرة ومنعوها عنهم ، فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين وكثر فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار ، وصاروا كلما حملوا ليتيسر لهم ورود الماء صدّوا وردّوا ، واستولى عليهم الأسر والقتل ، فأووا إلى جبل « حطين » ليعصمهم من البلاء بعد أن انهزم منهم طائفة ، فتبعتهم طائفة من المسلمين ، فلم ينج منهم أحد .

وهرب بعضهم إلى صور ، ولكن المسلمين أحاطوا بالباقين الذين احتموا بجبل حطين — وهى قرية عندها قبر شعيب النبى عليه السلام وضايقوهم ، وأشعلوا حولهم النار ،

وحرّ العطش وألم الجراح ، وحطوا خيامهم على ظهر التل ، فعاجلهم المسلمون عن ضربها ، واشتد الطعن والضرب ، ودارت عليهم دائرة السوء ، وعلموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام على الموت ، فحملوا على المسلمين ، ولكن الله ثبت أقدام المسلمين ونصرهم ، فأثخنوهم بالقتل والجراح والأسر ، ووهنوا وهنا عظيما ، وأيقنوا بالبوار ، وبقى ملك القدس على التل فى ١٥٠ فارسا فحسب . وما زال المسلمون يضربون الخيمة حتى سقطت ، وأسروا كلهم .

وهنا نزل السلطان عن فرسه ، وسجد لله شكرا ، وبكى من شدة فرحه ، لأن البلاد الإسلامية لم تشهد يوما كيوم حطين منذ ملك الفرنج البلاد الساحلية ، ولم تعرف المعارك شدة وهولا ونصرا وظفرا كتلك المعركة التى أدارها الناصر صلاح الدين . فقد كان الفرنج ألوفا فلم ينج منهم إلا آحاد ، وامتلأت الأرض بالأسرى والقتلى .

وأمر السلطان فضربت له خيمة ، فنزل فيها ، وأحضر ملوك الفرنجة ومقدميهم ، وأجلس ملك القدس « كى » إلى جانبه ، وأجلس البرنس إلى جانب الملك ، وفى نفسه وفاء نذره بقتله ، جزاء غدره ومكره ، فقرعه السلطان

وأذكره بذنبه ، وقال له : كم تحلف وتنكث ؟ فقال الترجمان عنه : إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك .

ولكن الناصر آنس الملك وحادثه ، وأمر له بشراب مثلوج فشربه ، وكان قد بلغ منه العطش مبلغا عظيما ، ولما ارتوى ناول البرنس (أرنو) القدح ، فشربه ، فقال السلطان للملك : لم آذن لك فى سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أمانا له .

ثم سار الجميع إلى مكان ضربت فيه السرادق ، واستحضر السلطان الملوك ، ولم يبق عنده أحد سوى الخدم ، فأقعد الملك وجماعته فى الخيمة ، واستحضر (أرنو) خاصة ، وأذكره قوله لما غدر بالقافلة الموجهة من الديار المصرية إلى الشام . ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل . فسل الناصر خنجره وضربه به ، وأجهز عليه من حضر من الخدم ، فسحب وأخرج من الخيمة ، فلما رأى الملك ذلك خاف وظن أن دوره بعده ، فطيب السلطان قلبه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . وأما هذا فتجاوز حدّه فجرى عليه ما جرى » .

ثم جمع السلطان الأسرى ، وبعث بهم إلى قلعة دمشق ، وأمر أن يحتاط عليهم . وبات الناس ليلة الأحد

على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والدعاء ، والشكر حتى طلع الصبح ، فتوجه السلطان إلى طبرية ، وخيم بها ، وتسلم الحصن من صاحبته . ثم أمر بقتل (الداوية والاسبتارية) وهم من المتعصبة المعتدية ، وسير السلطان الملك الأسير وأخاه ، وصاحب جبيل ، وجميع الأكابر إلى دمشق . وفرق بقية السبي بين الناس ، فتصرفوا فيه ، وبيع فى جميع البلاد الإسلامية .

+ وموقعة حطين كانت خيرا وبركة على صلاح الدين والجيوش العربية ، وكانت مفتاح الفتـــوح الإسلامية كما يقول ابن واصل ، وبها تيسر فتح بيت المقدس كما نرى بعد قليل .

+ وستظل هذه الموقعة بين سمع التاريخ وبصره تروى بطولة الشرق وعظمة العرب وشدة الإسلام ، فقد تغلبت قلة على كثرة ، لأن القلة أصحاب حق وسكان الوطن ، ولأن الكثرة أصحاب باطل وهم معتدون . وإلا فكيف يغلب اثنا عشر ألف فارس خمسين ألفا فى عقر دارهم وقرب حصونهم وفى أرض سكنوها منذ زمن ، وتكاتفوا من كل قطر ، ووفدوا من كل بلد غربى لاحتلالها واستعمارها ،

ظانين أن القوة مع الباطل توصل إلى النصر ، وأن العدوان سبيل إلى الفوز .

ـ ولذلك هزت حطين أركان الفرنجة والصليبيين ، فلم يكونوا ينتظرون انكسارا كهذا الانكسار ، يمحو الجيش ، ويذل المحاربين ، ويقضى على أكبر كتلة مهاجمة فى ذلك الزمان .

الفصل العاشر

الفتوحات العظيمة

٥٨٣ هـ

انتصر صلاح الدين فى حطين يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر ، وبعد أيام رحل إلى « عكا » فوصلها فى آخر الشهر ، لم يكد يستريح من معركة فاصلة وحرب طاحنة ، وأشلاء وضحايا ، وقتلى وأسرى . فهو لا يعرف القرار والهدوء كأنه ولد للحرب والنضال والدفاع عن بلاده والقتال ضد أعدائها .

وبلغ تل « عكا » مستهل جمادى الأولى ، يوم الخميس ووقف بإزاء التل مصمما على الزحف ، وبينما هو يرتاد موضعا للنزال إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فخيرهم بين الرحيل والإقامة فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين بعد الذى سمعوا عن حطين ، وحملوا أمتعتهم وتركوا المدينة ، فدخلها المسلمون يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ ، وأنقذ أسرى المسلمين بها وكانوا أربعة آلاف نفس .

وأقام السلطان مخيما على التل بباب عكا ، وفرق عسكره إلى البلاد المجاورة لعكا ، فاحتلوها ونهبوا ما فيها ، فامتلك الناصرة وقيسارية ، وحيفا ، والطور ، ونابلس وقلاعا كثيرة . ثم حاصر تبنين فتسلمها ، وسار إلى صيدا فاستسلمت ، وإلى بيروت فأخذها وذلك فى ٢٩ جمادى الأولى ، كل ذلك خلال شهر كامل ، كانت الحصون فيه ترسل رايات الأمان كلما لمحت جيوش السلطان ، فقد ذاق الفرنجة طعم الذل على يديه وبلغ ذلك أسماع المحاصرين فى البلدان المجاورة ، وبين البلد والبلد مسافات شاسعة ، وطرق وعرة ، وحصون حصينة وقـــلاع متينة ، هى اليوم أكثر بلاد فلسطين المحتلة ، وبلاد لبنان الشقيقة ، تسابقت إلى الاستسلام خوفا ورعبا ، وعرفت أن المقاومة لا تجدى ، وأن صلاح الدين أمن ولاياته فى الداخل ، وبسط العدل وأقام المساواة فيها ، ورفع راية الوحدة بين الإقليمين ، فاتفق السكان على الود ، وتناصروا على التراحم ، ووقفوا صفا واحدا حيال العدو ، يسيرون تحت راية « الناصر صلاح الدين » لطرد الغزاة المستعمرين ، وقد طال مكثهم فى الربوع العربية ، لتخاذل العرب بالأمس وتفرقهم

وحرب بعضهم على بعض فى الماضى . أما اليوم فلا مقام لهم فى أرض صلبة وجيوش متكاتفة وشعب متراصّ .

وفى شهر واحد نزع صلاح الدين عن الإفرنج ما قضوا فى سبيل أخذه وتعميره وتحصينه سنين كثيرة ، فأسر منهم مائة ألف ، واستخلص من أيديهم أكثر من عشرين ألف أسير من المسلمين .

ولما فرغ السلطان من « صيدا » سار إلى عسقلان لأنها على طريق الديار المصرية فإذا أخذها أمن الطريق واتصلت القوافل ، فتسلم الرملة وبيت لحم والخليل ، وحاصر عسقلان ثم تسلمها ، بعد أن أقام فيها الفرنج خمسا وثلاثين سنة وفتح غزة والنطرون ، وبيت جبريل .

فلما أتم فتح هذه المـــدن استدعى من مصر الأساطيل المنصورة فى سبيل هدف جلل ، هو القدس ، فكتب العماد يصف وصولها :

« فجاءت كالفتح بالفلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا ، وأفواج تزاحم أفواجا ، تدبّ على البحر عقاربها ، وتخبّ كقطع الليل سحائبها » .

وهذا يدل على ما وصل إليه جيش الإقليمين من قوة

فى البر هدمت الحصون وأرهبت الأعداء ، وحررت المدن فى الساحل والداخل ، فساعدت رهبتها وتزاحمها فى نصرة العرب ، وإعزاز الشام ومصر ، وبلغت البلاد ذروة رقيها وقوتها واستكمال عدتها ، لترهب عدوّ الله وعدوها .

وهذا ما دفع صلاح الدين إلى أن يفكر فى إتمام تحرير البلاد العربية ، واستخلاص « القدس » أقوى مركز من مراكز الفرنجة فى عظمته الروحية ومكانته السامية فى قلوب المؤمنين . فقد كانت حملات الفرنج من أجله ، وقدومهم من بلادهم فيما زعموا لاستخلاصه . وبزواله تزول حججهم فى البقاء ويصمهم التاريخ بأشنع اعتداء .

الفصل الحادى عشر

فتح القدس

٥٨٣ هـ

فكر صلاح الدين منذ أمد بعيد فى تخليص القدس ، ولكن الحال التى كان عليها الشام ومصر دفعته إلى التريث والانتظار ، والعمل على الإصلاح فى الداخل ، وتوحيد البلاد ، وقتل الدسائس ، وتقوية الشام بمصر ، وتسيير جيشيهما فى جيش واحد ، فالقدس ميمنة مصر وذراعها القوية ودرعها الحصين ، وهى ميسرة دمشق وذراعها القوية ، ولا تتم للقاهرة ودمشق قوة كاملة إلا إذا كانت القدس قلبهما المتين الخفاق ، ولا يقوى جسم إلا بالقلب فهو مصدر الحياة وشارة البقاء .

وقد فكر الخلفاء المسلمون فى القدس ، وجعلوها نصب أعينهم ، لموقعها الجغرافى ، ومكانتها الروحية ، فهى عربية فى نشأتها ، نزح إليها أبناء بيوس من الجزيرة العربية وسكنوها

حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، ومن ملوكها « سالم اليبوسى » زاد فى بنيانها وصروحها وبروجها فسميت باسمها الكنعانى « أورو سالم » ثم لفظت « أورشليم » . ولبثت على الزمان تتنازعها الأمم حتى عاد إليها الملك العربى سنة ١٥ هـ ، على عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، فدخلها بنفسه ، واستقبله أهلها خير استقبال وزار كنيسة القيامة فيها ، فلما حانت الصلاة صلى بجوار الكنيسة وهو الخليفة العادل العاقل ، رمزاً لتمسك المسلمين باحترام الأديان والشعائر ، والكنائس ، والحفاظ على المواطنين جميعاً فى مساواة وإخاء ، لا فرق بين دين ودين ، وملة وملة ، وظل الخلفاء المسلمون بعده يرعون للقدس وغير القدس حق التدين والجوار ، فى عهد بنى أمية وبنى العباس وبنى طولون ، وبنى الإخشيد والفاطميين والسلاجقة ، تعلوا عليها الراية خفاقة فى عدالة وصفاء ، حتى كان هؤلاء الفرنجة ، حين زعموا السير إليها لتخليصها من ظلم لم يقع ، وفتنة لم تحدث ، فإذا وفدوا ساد الظلم وعمت الفتن ، وأغم صلاح الدين من أمرها ما أغمه ، فقد احتل الصليبيون السواحل ، وراحوا يستمدون منها الذخائر والرجال .

والقدس تقع بين بحرين ، البحر الميت من الشرق والبحر الأبيض المتوسط من الغرب ، تبعد عن الأول ١٨ ميلا ، وعن الثانى ٣٢ ميلا ، فسبيل البحر إليها هو سبيل المؤن والدفاع . فلما امتلك صلاح الدين مصر استعان بسواحلها ومكن لأسطولها ، ليقطع على الفرنجة سبيل الإمداد ، وليضرب الأسطول بالأسطول .

وامتلك البطل قلاع فلسطين وحصونها وأمن ما حولها ، واستولى على حصن الكرك غربى حمص ، وعلى حصون عكا ، فقد كان حصن الكرك مركز القيادة لخمسة آلاف مقاتل ، وفيه حظيرة لألف حصان ، فاكتملت له العدة الحربية كما تكتمل اليوم لأكبر هيئة عسكرية حديثة ، بفضل ذكائه النادر وخبرته خلال السنين ، فقد ولد فى حصن تكريت وشبّ فى حصن بعلبك ، وقضى حياته على أبواب الحصون والقلاع ، كما رأينا ، وبذلك استطاع أن يمكن للحرب وأن يضمن أسباب النصر ، فى حطين ، فرفع رايته على مقربة من القدس ، وساق الأسرى وزرع الأرض ، بالقتلى ، فرفع الروح المعنوية للجيش ومهد للقتال والظفر ، وبات همه استخلاص القدس .

فلما وصل الأسطول المصرى ، سار الناصر صلاح الدين متوجها إلى بيت المقدس ، مهبط الأنبياء ومسرى النبىّ المعظم – صلوات الله عليه – ومحطّ أنظار العرب والمسلمين . وكان الناصر يعلم أن الفرنجة قد حشدوا فى القدس خلص فرسانهم ، وأعظم قوادهم وملوكهم ، لأنهم كانوا يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم بيت المقدس ، ويعتقدون أن بذل الأنفس والأموال والأولاد بعض ما يجب عليهم فى حفظه والذب عنه ، فحصّنوه بكل ممكن ، ونصبوا المنجنيق على السور .

فنزل السلطان على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب (من سنة ٥٨٣ هـ) وبقى خمسة أيام يطوف حول البلد لينظر من أين يقاتله ، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من الشمال نحو باب عمود ، فانتقل إليه يوم الجمعة لعشر بقين من رجب ، ونصب عليها المنجنيقات ، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، « وكل منهم يراه فرضا واجبا فى دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى ، بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ، ويزجرون فلا ينزجرون » كما قال ابن واصل .

وكانت خيالة الفرنج تخرج كل يوم إلى ظاهر البلد فتقاتل وتبارز ، فيقتل من الفريقين جماعة ، حتى كثرت الضحايا . ، فهجم المسلمون وحملوا حملة رجل واحد ، وأزالوا الفرنج عن مواقفهم ، وأرجعوهم إلى بلدهم ، ووصلوا الخندق وتجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه وزحف الرماة يرمونهم ، والمجانيق توالى الرمى . فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وأنهم أشرفوا على الهلاك اجتمعوا يتشاورون فيما بينهم ، واتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان . فأرسلوا جماعة من كبرائهم فى طلب الأمان ، ولكن السلطان امتنع وقال :

« لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى ، وجزاء السيئة بمثلها » .

وعاد الرسل خائبين ، فأرسل (باليان) يطلب الأمان لنفسه ، وحضر عند السلطان ، وطلب إليه أن يرق وأن يرحم ، فإذا لم يجب السلطان عمد الفرنجة إلى المسجد الأقصى فخربوه ، ثم قتلوا أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف . فاستشار السلطان أصحابه فأجمعوا على الإجابة إلى الأمان ، واشترط السلطان أن يزن كل رجل عشرة دنانير يستوى

فيها الفقير والغنى ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما نجا ، وإذا انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

وهكذا سلمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب . وكان ذلك اليوم مشهودا ، ورفعت أعلام السلطان على الأسوار . وخرج الأهالى والقواد والجنود ، وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه أموال كثيرة لم يعرض لها أحد ، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

ودخل المسلمون المدينة ، وكبروا فرحا ، وطهروا المسجد الأقصى مما زرع فيه الفرنجة من خبث وما أحدثوا فيه من أقذار ونصبوا المنبر . وأقاموا صلاة الجمعة فى الأسبوع التالى ، فامتلأت عراص المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح وخشعت الأصوات ووجلت القلوب ، وخطب القاضى محى الدين ابن الزكى ، وقد رقى المنبر بالأهبة السوداء العباسية خطبة بليغة تناقلتها كتب التاريخ .

واحتاج المصلون إلى منبر كبير ، وقد كان نور الدين الشهيد يطمع منذ عشرين سنة فى فتح القدس ، فصنع

للمسجد الأقصى منبرا حسنا فائق الصنع ، صنعه نجار بحلب من قرية « أخترين » ، ليس له نظير ، وقضى نور الدين قبل أن يستطيع وضعه فى مكانه . فأمر السلطان بنقله من حلب ، فحمل ونصب بالمسجد الأقصى .

وقد تقدم الشعراء والكتاب بمدح السلطان لهذا الفتح الجليل ، فكان ديوان كبير من مجموع الشعر والنثر ، يصحّ أن ينشر على الناس ، وقد قال ابن سناء الملك يمدح السلطان آنذاك :

لست أدرى بأى فتح تهنّا ؟ يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنّيك إذ تملكت شأما أم نهنّيك إذ تملكت عدنا ؟
قد ملكت الجنان قصراً فقصراً إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا

وقد تناهى السلطان فى الرحمة والعظمة والعفو عند المقدرة ، فكانت عنه حكايات تروى كالأساطير فى العطف على العجزة والمساكين وإعفاء عشرة آلاف من فقراء الفرنج لم يكن بأيديهم ما يفكون به أنفسهم من الأسر ، حتّى قيل إنه قضى يوما كاملا وعلى بابه مناد ينادى بأعلى صوته : « هل من فقير فنؤويه وهل من عاجز فنعفيه ، وهل من ضعيف فنحميه ؟ » وكم بكى السلطان رحمة للمرضى

وأمر أن ترد الفدية إليهم ، وكم تلقى من رسائل في العطف على البائسين فأجاب ، وكم من أم أضاعت رضيعها فطلبته من السلطان فأمر بردّه إليها .

وهكذا ألقى السلطان دروسا فى الأخلاق تشرف تاريخنا ، وتكمل صفحاتنا المجيدة ، وتلحق بمفاخرنا القديمة فى الوفاء والشرف واحترام العجزة والشيوخ والنساء والأطفال والمرضى ، ولعلها إذا وضعت بجانب ما روى الغربيون عن صفحات الفرنجة فى بلادنا ترفع لنا الراية فى الخير والبر والحسنى . فقد روى مؤرخ الحروب الصليبية « ميشو » ما فعل الفرنج عندما دخلوا القدس فاتحين منذ تسعين سنة تقريبا فقال :

« كان المسلمون يقتلون فى الشوارع والبيوت ، ولم يكن من ملجأ يلجأ إليه . وكان بعض القوم يفر من الذبح فيلقى بنفسه من فوق الأسوار وكان الفرنج المنتصرون يمشون على أكداس من الموتى المسلمين ، وقد أحرق بعضهم وهم أحياء . وذهب فى هذا الوقت نحو سبعين ألفا من المسلمين بلا ذنب ولا إثم » .

ولسنا فى سبيل الموازنة والفخر بين ما فعل صلاح الدين وما فعل الفرنجة ، فمن شأن الغربيين أن يستبدوا

ومن شأننا أن نستعد ، ونحن اليوم من جديد أمام مغتصبين من يهود أوربة سلبوا جزءا كبيرا من القدس ، وهم فيه يهددون أماكننا المقدسة النصرانية والمسلمة ، فلا أقل من أن نضع هذه السطور تحت أعين القراء العرب ليعرفوا كيف سلك صلاح الدين فى تخليص فلسطين والقدس ، وليسلكوا ما سلك ، فما من سبيل إلا السلاح والقوة .

الفصل الثانى عشر

فتح القلاع والحصون

٥٨٣ هـ — ٥٨٥ هـ

لم يزل الناصر صلاح الدين مقيماً بالقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان ، سنة ٥٨٣ هـ . يرتب الأمور ، وينظر فى المصالح ، ويصلح ما أفسد الفرنج فى البلاد ، ويفرق الأموال ، حتى إذا أتاه كتاب من نائبه على صيدا يحرضه على حصار صور ، رحل السلطان عن القدس متوجها إلى عكا ومعه أخوه الملك العادل ، فوصلها وأصلح من شأنها ، ورحل منها إلى صور ، وخيم بإزاء سورها .

و « صور » مدينة حصينة معظمها فى البحر ، قد حفر الفرنجة خندقا حولها من البحر إلى البحر ، واستظهروا بالعدد والعدد ، واستفادوا من انشغال السلطان بالقدس . فلبث صلاح الدين ينتظر هناك حتى تلاحقت العساكر به ، وجاءته الآلات . ثم راح يحاصر البلد ، واستدعى

الأسطول المصرى وكان بعكا ليحول دون وصول أسطول الفرنجة . وغدا المسلمون يقاتلون المدينة برًّا وبحرًا . وظلوا يحاصرونها حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين ، فأشاروا على السلطان بالرحيل ، وكان قد دخل الشتاء واشتد البرد ، فلم يسع السلطان إلا موافقتهم على الرحيل . وسار إلى عكا ، ثم بعث من يحاصر القلاع والمدن الباقية ، فاستسلمت هونين ، وأبقى على قلعة كوكب من يحاصرها .

وسار السلطان إلى دمشق ، مستهل ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ ، فتلقاه الناس وفرحوا بقدومه ، فقد كانت غيبته سنة وشهرين كسر فيها الفرنجة وفتح بيت المقدس. ولما استقر بدمشق قراره أمر باستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد، وابتدأ الجلوس بدار العدل ، وبحضرته الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، وكان نائبه قد بنى للسلطان دارا بالقلعة أنفق عليها أموالا طائلة وبالغ فى حسنها وظن أنها تقع من السلطان بموقع ، فلما رآها السلطان ما أعارها طرفه ، ولا استحسنها وقال :

« ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ؟ وما خلق العبد إلا للعبادة والسعى فى تحصيل السعادة الأبدية . وما جئنا إلى دمشق بنية الإقامة » .

وهكذا كان ، فلم تطل إقامته أكثر من خمسة أيام ،
ل بعدها إلى بعلبك ، مسرح صباه ، ثم رحل فى أول
يع الآخر ، وخيم على تل قبالة « حصن الأكراد » فى
بال عالية شامخة ، وشن الغارة على نواحى الحصن ،
و من أمنع الحصون وأكبرها فى المنطقة ، يبدو كأنه
نقاب فى شموخه ، يعتلى رأس الجبال ، وحوله تنحدر
سفوح فتبعث فى القلب رهبة وهيبة ليست لحصن من
لحصون ، والناظر إليه يكبر همة صلاح الدين وجيشه فى
لهجوم عليه والإغارة على أسواره المنيعة ، وأحجاره الكبيرة
ى تقارب أحجار الهرم فى ضخامتها . والصاعد إليه
رك عظمة الهمة فى البطل الناصر ، حين تطاولت إلى
راك النجوم واستلاب الكواكب ، واصطياد العقبان فى
رى الجبال .

وسار الناصر صلاح الدين إلى أنطرطوس ، وجبلة ،
استولى عليهما وفتحهما ، كما فتح اللاذقية وهى مدينة
اسعة ومعاقل لا ترام ، وأحسن بلاد الساحل وأحصنها. فلما
تحها وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره ، واستقبل
راكب صقلية وأمنها فصعد إليه رئيسها وقال له : « أنت

سلطان عظيم قد شاع في الأرض عدلك ، واشتهر فضلك وإحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكت قيادها ، ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا لك عبيدا وأطاعوك » . . .

وهكذا غدا السلطان مرهوب الجانب ، بعيد الصيت ، يخافه الفرنجة في كل مكان ، ويخشون بأسه في البر والبحر ، وتحت كلّ حصن وفوق كل قلعة . لأنه قام بأمر الجهاد على حال شريفة ، في حرب يدعمها الإيمان وتسندها العزيمة ، ويغذيها الفداء والثبات .

وسار صلاح الدين من اللاذقية إلى قلعة صهيون وهي منيعة كذلك ، فملكها جنده البواسل ، ثم سار ففتح عدة حصون وقلاع يعيينا حصرها وتعدادها ، وكلها صعب المنال عسير المرام ، ولكنه استولى عليها وأخذها ، وأراح السكان من أعدائها . وظل يسير إلى حماة ومنها إلى دمشق فبلغها قبل دخول شهر رمضان، سنة ٥٨٤ هـ ، وقد أشير عليه أن يريح عسكره فقال : « إن القدر غير مأمون ، والعمر لا يعلم كم بقي منه ، وللفرص أوقات تنتهز ، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ، ولا بد من المبادرة إلى أخذها ، لا سيما صفد وكوكب » .

وكانت إقامته بدمشق هذه المرة كذلك أياما معدودات إذ غادرها منتصف شهر رمضان إلى قلعة صفد ، فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى كوكب فأحدق بالقلعة ، والأمطار تنهمر والرياح تعول ، وجرح من خلقه كثير ، حتى تمكن من نقبها فطلب أصحابها الأمان .

وكان هؤلاء الفرنج الذين يتركون القلاع ويغادرون الحصون يذهبون جميعا إلى صور ، فاجتمع بها من شياطين الفرنج وأبالستهم كل عنيد ، فاشتدت بصور شوكتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس يستغيثون ويستنجدون والأمداد تأتيهم ، وذلك كله لخطأ السلطان فى إطلاق سراحهم وتركهم يلجئون إلى صور . ولو حبسهم فى مكان بعيد لما تجمعوا وتقووا ، ولكنه ندم على ذلك فيما بعد ، وجعل للفرنج قوة هائلة متجمعة فى صور . كان من الخير تفريقها ، فقد هددت المسلمين بعد ذلك بخطر شديد إذ حشد (كونارد) قائد صور قوة عسكرية هائلة لتهديد البلاد . وقد لامه مؤرخو العرب على هذا الذهول العسكرى وجعلوه سببا فى الحملة الصليبية القادمة .

ومهما يكن من أمر ، فقد سار إلى القدس وعيد بها ،

ثم إلى عسقلان ، ثم إلى عكا فأقام بها حتى سنة ٥٨٥ هـ ، وهو ينظر فى أمـــور عكا ومصالحها . ثم سار فى مستهل صفر إلى دمشق ، وخرج منها فى ثالث ربيع الأول فأقام بها شهرا كاملا ، وذلك لأنه لم يكن يعرف لنفسه الراحة والقعود ما دام الفرنجة فى الحصون الإسلامية ، فهو يخرج إليهم بنفسه ، ويحاربهم بجيشه تحت قيادته ، وقد خبر الحرب والـــكر والفرّ ، والحصار والرمى ، كأنه جندى موكل بفتح القلاع وغزو الحصون ، يتأثر ما روى عن الرشيد يحج عاما ويغزو عاما ، وهو يغزو فحسب كل عام بل كل شهر .

ولهذا رحل الناصر إلى بانياس ومرج عيون ، والعساكر تتواصل وتأتى من كل ناحية ، فجاءه أن الفرنج بصور يستعدون للهجوم ، وقد خرجوا وفتكوا ، والأمداد تأتيهم من كل فج ، فلما استكملوا العدة أقبلوا على حصار عكا من كل جانب ، فأقبل عليهم المسلمون فوقعت الوقائع : وخسر المسلمون كثيرا من جنودهم ، ولكن طريق عكا انقطع عليهم . وأقبلت خمسون قطعة من الأسطول المصرى لعون صلاح الدين ، وقد تأزم وضعه الحربى .

وهنا أرسل السلطان كتبه إلى جميع الأقطار يستدعى الناس إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويحذرهم من تجمع الفرنج واحتشادهم وبلوغ المدد الكثير إليهم عن سبيل البحر والبر ، وأن ملك الألمان خرج من القسطنطينية فى مئتى ألف جندى يريد البلاد الإسلامية ، ولبث السلطان صلاح الدين ينتظر الأمداد بفارغ الصبر ، فقد انقلب آخر الأمر من مهاجم إلى مدافع ، وسنرى ما يكون منه .

الفصل الثالث عشر

بين النصر والفشل

٥٨٥ هـ — ٥٨٨ هـ

وثق السلطان « صلاح الدين » بعهود الفرنجة ، فكان يطلق سراح الأمراء والقواد على أن يتوبوا وأن يعودوا شاكرين ، وكان يتعاهد معهم فى إرجاء المعارك والغزوات ، فيطبق المعاهدات بكل شرف ، ولكنهم تعودوا الكذب والمكر ، فلا يقابلونه إلا بالخيانة والنكث . وسبب ذلك كله أنه كان مؤمنا أشد الإيمان فلا يحنث ولا يخلف ، ويظن أن القواد العسكريين من الفرنجة هم على مثل ذلك لا يحنثون ولا يخلفون ، فتبين له بعد ذلك ضعف معرفته بأخلاق الفرنجة ، وشدة طيبته وإخلاصه . ولكن هذا كله كلفه غاليا وجر على البلاد بسبب رحمته وعطفه بلايا كثيرة .

فقد تجمع الفرنجة فى « صور » وازداد عددهم ولبث السلطان منذ سنة ٥٨٥ هـ ينتظر الأمداد ، ودخلت

سنة ٥٨٦ ﻫ ، وهو على انتظار الغوث والنجدات ، والفرنجة قد انصرفوا إلى بلادهم لهجوم الشتاء وتوالى الأنواء . فلما انقضى الشتاء ودخل الربيع جاءت العساكر والنجدات يتلو بعضها بعضا ، والملوك والأمراء يفدون عليه ، وهم عالمون بما وصل إليه الحال من عود الفرنجة إلى سالف أمرهم بعد أن تجمعوا فى صور .

وكان الفرنج قد شرعوا فى بناء الأبراج على عكا ، ثم بدأوا فى طمّ الخندق استعدادا للهجوم على البلد ومضايقة المسلمين المحاصرين فيها ، فكتب ثانية إلى سائر الأطراف فى الحثّ على وصول العساكر ، وذلك بسبب الأبراج الخشب فهى تعلو حتى تكاد تلاصق السور ، وكان المسلمون يشغلون الفرنج بالقتال عن جرها قرب السور ، ثم فتقت الحيلة لأحد الدمشقيين فجمع العقاقير وطبخ الأدوية من النفط ورمى بها الأبراج واحدا بعد واحد فأحرقها كلها . وأراد السلطان أن يكافئه فلم يقبل وقال : « هذا عملته لله ، فما أريد سواه جزاء » فأوقف السلطان عليه قرية من خيار قرى دمشق .

وقد فرج الشاب الدمشقى عن كربة المحاصرين ، فخرج

أهل عكا من البلد ، وأطفأوا النار وسدوا الثغر . ووافق ذلك وصول الأسطول المصرى فخرج السلطان إلى لقائه ، وجهزت الفرنج أساطيلهم لمقاتلة أسطول المسلمين ، فطعن أسطول المسلمين أسطول الفرنج وقتل منهم كثيراً .

وجاءت البشرى كذلك بأن ملك الألمان « بارباروس » الذى كان على حملة إلى بيت المقدس ، قد لقى حتفه غرقا فى أحد الأنهار ، وأن جيشه قد عمّ أكثره المرض ، وصار معظمهم حملة عصى وركاب حمير ، كما جاءت رسائل من ملك الروم بقسطنطينية إلى السلطان تطلب المودة وتقيم الخطبة فى جامع القسطنطينية للسلطان بعد الخليفة العباسى ، وهذا نصر كبير فى فصل الروم عن الفرنجة ، وإيصال صوت الإسلام وبغداد إلى قلب بيزنطية فى القرن السادس للهجرة .

ودخل الشتاء فأبدت العسكر السآمة والضجر من الإقامة ، فأذن لأكثرهم بالرحيل إلى بلادهم ، وقد أمنت غائلة العدو بسبب تواتر الأمطار واشتداد البرد ، وذلك ليأخذ الجنود نصيبهم من الراحة .

ودخلت سنة ٥٨٧ هـ ، فخرج المسلمون من عكا

على الفرنج وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلما أقبل الربيع توافت العساكر وأقبل قوادها ، ووصل إلى الفرنج أمداد من البحر ، ووصل ملك فرنسة « فيليب » كما وصل ملك الإنكليز « ريتشارد قلب الأسد » فزحف العدو على عكا ونصب المجانيق ، وصنع دبابة عظيمة هائلة ذات أربع طبقات تعلو على السور ، وخاف أهل البلد ، فهجم المسلمون على خيم العدو ونهبوها ، ومرض ملك الإنكليز ، وجرح ملك الفرنسيين ، وهرب المركيز إلى صور ، ولكن الجيش الفرنجى زحف على عكا ، فهجم السلطان يحث على الجهاد وينادى : « يا للإسلام » وعيناه تذرفان الدموع ، ولم يطعم هو ولا الناس فى ذلك اليوم طعاما ، وقضى الليل فى هم ، فلما أصبح عاود القتال ، ولكن نفوس العرب من أهل عكا قد ضعفت ، وتمكن العدو من الخنادق فملأها ، ونقب السور ، ودخل البلد فسقطت عكا ، وكانت مذبحة وكارثة ، فنى فيها من جند صلاح الدين كثير .

وسقوط عكا شجع الفرنج على متابعة القتال والحصار واسترداد ما خسروا فساروا نحو عسقلان ، وسار إليهم السلطان بجيوشه فقتل وأسر ، وخرب البلد على مضض منه

خشية وقوعها فى يد العدو . ونزل بعدها على الرملة وأمر بتخريبها كذلك . فلما علم الفرنج بخطته راسله ملك الإنكليتر (الإنجليز) فى المسالمة والمصالحة ، برسالة قال فيها :

« إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه . وليس هناك سوى القدس » فأرسل إليه السلطان يقول :

« القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان لها من المسلمين فى ذلك الوقت » .

وهذا جواب سياسى حكيم ، شديد التسامح ، كأنه كتب بلغة اليوم ، لا غبار عليه لو أن العدو كان يفهم معنى التسامح والعدل ، فهم دائما يهمون بالغدر والنكث فيعملون الحيلة فى الوصول إلى ما وصلوا إليه . لذلك قرر السلطان أن يقيم فى القدس ، فوصل إلى البلد ، والشتاء قد دخل ، فشرع فى تحصين القدس ، وعمارة أسواره ، وعمل فيه بنفسه ، فنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه

ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء . وذلك لأنه يعد الدفاع.
عن القدس دفاعا عن العالم العربى والإسلامى كله ، فهو
رمز القوة والاستقلال .

وقد صدق ظن الناصر ، فهاجم الفرنج القدس ولكنهم
باءوا بالفشل ، إذ قطع عليهم المياه وأفسد ما بقى منها ،
فراسله ملك الإنكليز فى الصلح لحقن الدماء ، واستشار
صلاح الدين أعوانه فأشاروا بالصلح لكثرة ما أخذ الجيش
من الضجر والتعب ، وعلاهم من الديون . وتم الأمر بأن
لا يتعرض أحد لمن سكن فيها ، وأن تكون البلاد الساحلية
للفرنج ، والجبلية لصلاح الدين .

وجاء السلطان خبر يفيد بأن الفرنج رحلوا طالبين
بيروت ، فى رجب سنة ٥٨٨ ﻫ ، فبرز من القدس ،
وسار إلى الرملة ، وحاصر يافا فطلب أهلها الأمان ولكن
ملك الإنكليز استرجع ربضها . فعاد السلطان إلى النطرون
وعقدت بعدها هدنة بين الفرنجة وصلاح الدين ، إذ مرض
ملك الإنكليز مرضا شديدا ، وعاد الفرنسيون إلى بلادهم
ليعبروا البحر ، وكانت مدة الهدنة ثلاث سنين ، عامة
فى البحر والبر .

وهنا رحل السلطان إلى القدس فى رابع شهر رمضان ، وراح يتفقد أحوالها ، ويشتغل بتشييد أسوارها وتحصينها ، وتعمير خنادقها ، وتنظيم شئونها ، فبنى المدارس والملاجئ والمستشفيات ، وعادت مدينة زاهرة بالعلم والمعرفة والتقوى والخير .

ورحل السلطان من القدس إلى دمشق بعد أن طاف بالقلاع والحصون فى الطريق ، فبلغ دمشق فى خمس بقين من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته عنها كانت قد طالت مدة أربع سنين ، كانت تبلغهم خلالها أنباء الانتصارات والانكسارات ، فيفرحون ويحزنون ، وأخيرا أتتهم أنباء الهدنة ففرحوا بعودة البطل الناصر إليهم ، وقد بذل من نفسه وصحته ما بذل فى سبيل بقائهم ونصرهم وعزة العرب وبقاء الإسلام .

الفصل الرابع عشر

خاتمة المطاف

٥٨٩ هـ

قضى صلاح الدين شبابه فى غزو مصر تحت راية نور الدين ليجمعها إلى الشام ، فلما مات نور الدين أصبح صلاح الدين يتردد بين القاهرة ودمشق لإدارة هذا الملك العريض . ثم لبث فى الشام أواخر حياته ، يحارب الصليبيين حتى كأنه ما نزل عن ظهر فرسه ، ولا رأى الراحة ، فطورا كان ينتصر وآنا ينكسر ، وفى كليهما كان يبذل جهده ونفسه فى سبيل الله والوطن . فما هان ولا لان ، ولا سكنت نفسه إلى اللذائذ والترف كما تسكن نفوس الملوك ، وإنما كانت الحياة فى نظره جهاداً فى سبيل الله والوطن والعروبة والإسلام ، فالجهاد كان سبيلا إلى الجنة ؛ والجنة هى الخلود بعينه ، لذلك آثر الآخرة على الدنيا ، وكتب بأعماله ملاحم خالدة ، يصحّ أن ينظم فيها شاعر

ما نظم هومير وما تخيل اليونان والرومان والفرس ، فهو رمز البطل والبطولة ، لو صنع له تمثال لكان على فرسه ، يشق به الغبار ، ويعتلى به سفوح الجبال ليبلغ إلى أعلى الحصون . ولو رسمت له لوحة فنية لكان فيها داعية إلى الجهاد يحث على القتال وهو يصيح « يا للإسلام » والخيول من حوله تسقط والفرسان يجندلون بالسهام والسيوف والنبال .

ولم يكن صلاح الدين ملكا لناحية فحسب ، بل كان لكل شبر من أرض الشام ومصر ، رقص خياله على كل جدار ، ومر شبحه أمام كل حصن ، وركض فرسه فى كل أرض فكأنه طاف بلاد الشام مرات ، وزارها عشرات كما نطوف من غرفة إلى غرفة داخل بيوتنا الضيقة . . ورأسه يفكر فى خير هذه الأمة التى أولته قيادها ، فما جلس فى قصره يدير المعارك ، وإنما قام بجسمه فى خوض المعارك ، وحملت يداه الأحجار والنبال والسهام مع الجندى الصغير فى كل زاوية وفى كل معركة .

لقد كان صلاح الدين جنديا عظيما من جنود الحرب فى سبيل الخير وفى الذود عن الحمى والدفاع عن الحدود ، وما تخلف عن معركة من المعارك الفاصلة ، فرأى الموت

عيانا ، وأقبل على الاستشهادات مرات ، فضرب المثل الرائع لجنوده وأمرائه وقواده ، وشجعهم على الاستبسال والاستشهاد . ولكن الله لم يكتب له أن يموت داخل المعركة شهيدا على فرسه أو قبالة حصن من الحصون ، وإنما قدر له أن يعود إلى دمشق الحبيبة ، وإلى شعبها الباسل ، وأن يقضى بين أنين الشعب وزفراته حزنا على موته .

فقد عاد إلى دمشق لخمس بقين من شوال سنة ٥٨٩ هـ ، وهو فى السادسة والخمسين من العمر ، قضى ستة عشر عاما منها فى الغزوات والمعارك فاتحا ومدافعا ، مقاتلا ومحاميا ، وقد ملّ جنده وسئم قواده خوض المنايا ، فأذن لهم فى التفرق إلى بلادهم ، بعد أن عقد الهدنة مع الفرنج ، فأتاه ابنه الملك الظاهر صاحب حلب ليفوز بالنظر إلى أبيه ثانيا ، وكأن نفسه حدثته بدنو الفراق إلى غير لقاء ، ثم رحل عنه إلى حلب . وبقى عنده بدمشق ولده الملك الأفضل نور الدين ، وجماعة من أولاده ، والقاضى الفاضل كاتبه . وأما القاضى ابن شدّاد فقد تركه فى القدس ليتوجه إليه السلطان الناصر فى سبيله إلى مصر ، فقد عزم صلاح الدين على أن يزور الديار المصرية بعد أن طال عهده فى البعد عنها .

ولبث السلطان فى دمشق يتصيد حول قرية « غباغب » إلى « الكسوة » ، كأنه لا يستطيع أن يبقى بعيدا عن المعركة ، إما فى صيد الحيوان وإما فى قتال الأعداء . ثم عاد إلى دمشق ورسل الأمصار تفد إلى بابه ، وهو يجلس كل يوم لإسداء المكارم وكشف المظالم حتى دخلت سنة ٥٨٩ هـ ، والسلطان على أمل ما يكون من المسرة ــ كما قال المؤرخون ــ .

وفى الثانى عشر من صفر وصل القاضى ابن شداد قادما من القدس ، ودخل على السلطان ، فضمه إليه ودمعت عيناه ، ودخل عليه كذلك فى اليوم التالى ، ثم دخل فى اليوم الثالث فرآه فى البستان وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل رسول الفرنجة وجماعة من الأمراء الأكابر ، فاستحضر الفرنج إلى ذلك المكان وكان له ولد صغير يداعبه ، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى ، فاعتذر السلطان إليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولبث مع ابنه يشفى غليل نفسه من مداعبته ورؤيته .

وفى اليوم الرابع خامس عشر من صفر ، ركب السلطان للقاء الحاج الشامى وكان يوما عظيما خرج فيه معظم من فى البلد . فلما لقى الحاج استعبرت عيناه وتساءل كيف فاته

من الحج ما تمناه ؟ وكم عقد النية على ذلك ولكن أصحابه منعوه منه خوفا من أن ينكث الفرنجة أو يغيروا على الشام فيقع ما لا تحمد عقباه . وطفق السلطان يسأل الحاج عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين ، ورواتبها وإدراراتها ، وسرّ بسلامة الحاج .

ثم سار السلطان بين البساتين يطلب جهة « المنيبع » حتى أتى القلعة ، فعبر الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته . وذلك لأنه بعد لقاء الحاج والتأثر الذى أصابه بحرمانه منه وجد ليلة السبت كسلا عظيما فى جسمه ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمّى صفراوية ، أصبح يوم السبت وعليه أثر الحمى . فحضر عنده القاضى ابن شداد والقاضى الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وأخذ يشكو السلطان من قلقه بالليل ، وطال حديثه إلى قريب الظهر .

ثم أخذ المرض يتزايد من حينه ، إلى أن انتهى إلى غاية الضعف ، وفى اليوم التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول الطعام ، واشتد الإرجاف فى البلد ، وغشى

الناس بكاء وحزن . وفى اليوم العاشر حقن دفعتين فاستراح ، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا . وما مضى هزيع من الليل حتى خارت قوته واستشعر الأطباء نهايته .

وفى ليلة الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣ م) اشتد به المرض ، وغاب ذهنه ، وكان الشيخ يقرأ عنده فلما وصل إلى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة » سمعه يقول : « صحيح » ، وكانت آخر كلمة لفظها » .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح ، وهو فى السابعة والخمسين من عمره . فعلا البكاء واشتد الحزن ، وخرج أولاد السلطان يستغيثون بين الناس ، فكان المشهد رهيبا يثير الكمد والحسرة . وغسل وكفن وأخرج بعد صلاة الظهر ، وأم بالناس قاضى القضاة محى الدين بن الزنكى ، ثم أعيد إلى الدار التى فى البستان حيث تمرض ، ودفن بالصفة القريبة منها . وجلس الناس للعزاء جلوسا عاما ، واستمر حضورهم بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له . وبكاه أهل دمشق قاطبة ، وخلت الأسواق ، وندرت المارة فكان حزنا شاملا أرجاء المدينة التى رفع ذكرها وأعلى اسمها .

وبعد ثلاث سنوات أعدّ له ولده الأفضل قبرا بجوار الجامع الأموى ، فى مكان كان دارا لرجل صالح اشتراها منه ، ونقل رفاته إليه يوم عاشوراء ، بمحفل رهيب ، وجلس للعزاء بالجامع ثلاثة أيام . وقد حرم على الشعراء والكتاب رثاءه ، فلا يستطيع شعر أن يوفى الخسارة حقها ، ولا يستطيع نثر أن يرسم الكارثة بفقده . فقد كان أمة وحده ، وكان بطلا مثاليا ندر أن يجود الزمان بمثله ، نصر أمته وأعزها ، وكفل لها البقاء ، فأرهب أعداءها ، ورفع لها شأنا فى التاريخ تعتز به على الأجيال .

وقد كان مولده فيما رأينا سنة ٥٣٢ ه ، وكانت مدة ملكه الديار المصرية ٢٤ سنة ، وملكه للشام قريبا من ١٩ سنة ، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ، وبنتا واحدة .

وهذا الملك الذى حكم قريبا من أربعين سنة قضى وليس فى خزانته سوى سبعة وأربعين درهما ، ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ، وإنما ترك هذا الصيت الواسع والدوىّ الهائل والذكر الخالد أبد الدهر . يكبره العرب ويكبره الغربيون على رغم وقوفه أمام جيوشهم وقتاله لرجالهم فقد قال فيه « ول ديورانت » وهو أحدث من كتب

عنه فى هذه السنين بالغرب بعد أن وصف معاركه[1] :

« وبعد ، فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله ، قد غلبت بهاء (رتشرد) وشجاعته ومهارته الحربية ، كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والإخلاص فى المقصد . وكان قصر خط التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت الفضائل المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى . فقد كان صلاح الدين مستمسكا بدينه إلى أبعد حدّ ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى . ولكنه كان فى العادة شفيقا على الضعفاء ، رحيما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموًّا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى — الخاطئ فى ظنهم — رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد .

وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها . وكانت قيمة المال عنده لا تزيد

---

(١) قصة الحضارة ، ١٥/٤٤ .

على قيمة التراب . ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا ، وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية :

« أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير . وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر . فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم » .

ونظر إليه القادة الغربيون نظرتهم إلى قائد وقف أمام قواتهم فحال دون تغلغلها فى ربوع العرب ، فكان انتصاره العسكرى عليهم رمز اندحارهم وتقهقرهم وانكسارهم ، فأكبروا فيه المهارة العسكرية والشجاعة الحربية ، وجعلوه رأس القادة الكبار فى الأمم فقد كان وحده قائدا ، وكانت أمامه قوات وقيادات من أمم مختلفة فاستطاع أن يتغلب عليها وأن يصمد

لها . فلما قدم الإمبراطور غليوم إلى دمشق سنة ١٨٩٨ ومعه الإمبراطورة ، خطب خطبة بليغة فيها قال : « ومما يزيد فى سرورى أنى موجود فى بلد عاش بها من كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ، من كان قدومه الشهامة ، والذى كانت شهرته متجلية فى الآفاق ، ألا وهو البطل صلاح الدين الأيوبى » .

وقد أرسلت الإمبراطورة إكليلا بديعا من الزهر ليوضع باسم الإمبراطور على ضريح هذا البطل العظيم ، وكتب عليه بالعربية : « ويلهلم الثانى قيصر ألمانيا وملك بروسيا ، تذكارا للبطل صلاح الدين الأيوبى » . وهذه الوقفة أثارت مشاعر شعرائنا فقال شوقى يذكرها مخاطبا الإمبراطور :

دعوت أجلّ أهل الأرض حربا
وأشرفهم إذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكّره ملوكا
تعوّد أن يلاقوه قياما
وكم جمعتهم حرب فكانوا
حدائدها وكان هو الحساما

وإذا كان هذا موقف غليوم ، فقد وقف غيره من

الضباط المستعمرين موقف القحة والدناءة ، إذ قدم على قبره فقال له : « ها نحن أولاء يا صلاح الدين » ، لكن صلاح الدين كان عظاما هامدة ، ولو كان هذا القائد الغربى الكسيح المزيل فى عصر صلاح الدين لقضى رعبا قبل أن يتشرف بالمثول بين يديه . ولكن الجرأة على الأموات من صفة الجبناء ، وليست من الشجاعة فى شىء ، وليست من الخلق فى أمر . وإن وقفته تدل على إحساسه العميق بذلّ أجداده من قواد الفرنسيين الذين أطاح صلاح الدين برءوسهم وعمر على جثثهم بروج الدفاع وأسوار الحصار ، وتدل كذلك على شدة حنقه لتاريخ أمته المقهورة فى بطاح الشام وفلسطين ، والعجيب أن هذا الحنق ما يزال يتنقل فى دماء قوادهم على مرّ ثمانية قرون لم ينسوا خلالها ذلهم العسكرى وانكسارهم الحربىّ على يدى بطلنا صلاح الدين .

أما الأشراف والنبلاء والزعماء والقادة من بلادنا العربية ، فهم يقفون على قبره ليستمدوا من روحه السامية روح التضحية والبطولة والفداء ، وليقبسوا من هدى تعاليمه وجهاده مبادئ الوحدة الكبرى التى عمل لها ، والنضال فى سبيل العرب الذى قضى حياته له ، فهو شعلة خالدة تنير الطريق إلى

خير العرب وتآخيهم وتكاتفهم ووقوفهم صفا واحدا فى وجه العدو المغير .

وكم من وقفة تاريخية على هذا القبر الجليل يسطرها الدهر بمداد العزة للعرب ، وآخرها ما كان من زعيمى مصر والشام ومبايعة الرئيس جمال عبد الناصر أمام هذا الهيكل الخالد فى ٢٨ فبراير ١٩٥٨ ، ليقود العرب إلى وحدة كبرى تجمع الشمل وتوحد الراية ، وتصل الجيش بالجيش وتمحو الحدود ، وتزيل السدود ، وتقرب بين القلوب والأفئدة فى سبيل رفعة العرب ومجدهم ، ليكتبوا من جديد صفحات الفخار والأمجاد كما كتبها صلاح الدين فى عصره .

وهذه الوحدة الكبرى التى نهض لها صلاح الدين فحققها وكاد يبلغ ذروة أمانيه فيها لولا موته ، هى الوحدة التى ينهض لها قادتنا وشعبنا وتصبو إليها عيوننا وأفئدتنا ، فنزيل الحصون اليهودية ، ونمحو الأعلام الأجنبية من أراضى العرب ، ونعيد فلسطين قطعة من أرضنا وفلذة من كبدنا ، ونعلى على روابيها رايات الفخر والانتصار والوحدة . ونكتب من جديد نصرا على نصر فى تلال حطين ، وفى أسوار القدس الجديدة وفى كل بقعة كتب عليها صلاح الدين بسيفه سطور الظفر .

إن العرب لينتظـرون ذكرى صلاح الدين اليوم أكثر من أى يوم مضى ، فإن أيام صلاح الدين عادت تنتظر الناصر الجديد لحطين جديدة، والعدو عاد إلى الأرض التى أجلاه عنها صلاح الدين ولكن باسم جديد ، لا باسم الصليبيين والفرنجة بل باسم مستعار هزيل هو ضحكة القدر وهزءة التاريخ ، يحمل الباطل فى لفظه والسخرية فى رسمه . وقوى الشر التى هجمت على الشام من قبل هى التى كانت وسيلة إلى دعمه ، وكانت شريكه فى حربه ، فدحرت مرة مرة ، وهى تنتظر المرة الحاسمة التى تدحر فيها إلى غير رجعة ، وتذهب فيها إلى البحر ، كما ذهب الصليبيون على يد صلاح الدين وجيش العرب الموحد وراءه .

وإن العرب لينظرون إلى ذكرى صلاح الدين فى البلاد التى عاش فيها بمصر والشام ، ذكرى عزيزة غالية فيها تقديس وإعزاز ، وينظرون إلى دمشق التى حضنت رفاته نظرة عطف وحنو وحبّ ، فيحجون إلى قبره فى هذه الأيام العصيبة وقد تكالب الغرب من جديد ، لغزو بقعة ضيقة لا يكاد الناظر إليها يصدق أنها تضمّ جسدا حمل آمال أمة كبيرة .

هذه البقعة تحتاج إلى من ينظر فيها ويعنى بمكانها ، ويحتفل بتوسيعها ، وتجميل ما حولها ، وتحويلها إلى حديقة كبيرة تتوسطها قبة القبر الخالد ، ويعلوها النسر الصلاحى ، ومنه رسم خلفه صلاح الدين بالألوان على قلعة مصر .

أجل إن الأحجار لا تخلد أصحابها ، والأوابد لا تنصر أهلها ، ولكن الجيل الذى نعيش فيه يجب أن يقرأ أسماء أبطاله كما يقرأ الغربيون ، منقوشا على الحجر فى آبدة كبيرة تكتب عليها أسماء المواقع والحصون والبلدان والمعارك التى خاضها الناصر فى سبيل أمة العرب ، وربما ضاقت الآبدة عن هذه الأسماء ، لأنها كثيرة . فالقلاع والحصون والبلدان هى جغرافية أرضنا كلها من أقصى الشام إلى أقصى صعيد مصر وتخوم أفريقية ، تضم أعلام الأماكن فى الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها السورى والمصرى ، والجمهورية اللبنانية ، وفلسطين السليبة ، والأردن الشقيق . وهذه الأماكن دافع عنها صلاح الدين على فرسه وبسيفه وحسامه ، وبذل فى سبيلها مهجته ونفسه وراحته وأمنه ، فكتب فى كل ركن من أركانها وفى كل زاوية من زواياها صحائف لأبنائنا وبناتنا .

إن الأمم تحتفل بالجندى المجهول ، والضابط المشهور ، والإمبراطور العظيم ، والرئيس الداهية ، والمخلص الوطنى ، والحاكم العادل ، فترفع له الأوابد ، وتسمى باسمه الساحات والمدارس والجامعات والمستشفيات . وصلاح الدين كان كلّ هؤلاء جميعاً ، فكان جنديا وضابطا وملكا ورئيسا وزعيما وحاكما ، يستحق من أمة العرب فوق ما فعلت فرنسة لنابليون ، من ضريح كبير ، وقوس للنصر واسع ، فأين صلاح الدين فى أمتنا من ذلك الكورسيكى فى أمته .

إن صلاح الدين الأيوبى — كما رأينا فى هذه الصفحات الموجزة — أبلى أيامه فى المعارك ، وملأ عينيه من الانتصارات ، وتحرك لسانه بالنجدة والإغاثة والشكر لله والدعاء بالحمد والدعوة للجهاد ، وحملت يده السيف سنوات عمره تضرب فى الأعداء فما كلت ، وتجهز على الخونة فما ملت ، حتى تحقق له النصر ، وطرد الصليبيين ، وأدهش الغرب بحياته ، كما أدهشهم بمماته فخصوا به الكتب والمجلدات تروى أساطيره وملاحمه .

وإنه رسم الوحدة الكبرى للعرب قبل ثمانية قرون ، فجمع مصر والشام وأفريقية واليمن ، ودعا باسم بغداد ،

فكأنه جمع العالم العربى كله . وعمل على إنقاذ هذه البقاع من يد الأجنبي ، وأبقاها حرة مستقلة بحكمته وبسالته ، ودهائه وكرمه ، وخلقه ودينه ، وعقيدته ووطنيته ، فقضى كل دقائق عمره فى سبيل العرب ، لم يضع سانحة تمر أو فرصة تنقضى إلا كان قلبه الكبير يفكر بالوطن العربى الكبير ، فله من رقاع هذا الوطن العربى الكبير وبقاعه كل وفاء وإكبار .

لقد هجم الألمان ، وغيرهم ، بجموعهم وملوكهم وقوادهم وجيوشهم فى البر والبحر ، بالآلات والدروع والسيوف والدبابات ، فوقف لهم بنفسه وصدهم بجيشه . واستنقذ فى تسعة عشر عاما ما كسبوه خلال قرن تقريبا . فكأن أوربة كلها اجتمعت على حربه وقتاله فانتصر عليها جميعا بفضل إيمانه ووحدة العرب ، وبقيت مدينة « صور » وحدها قلعة للفرنج ، ولولاها لطهر البلاد العربية كاملة من رجس الغزاة وغزوهم ، ولكنه مهد لطردهم نهائيا عن ربوعنا على أيدى خلفائه من بعده .

ولهذا تقف أجيال العرب أمام ذكراه وقفة الإكبار والتقديس ، فى وفاء لا تمحوه السنون ولا تطمسه الأعوام .

وسيبقى اسم « الناصر لدين الله المظفر صلاح الدين يوسف ابن أيوب » ما بقى الدهر ، وما تقلب الليل والنهار .

رحمه الله رحمة واسعة .

أبواب الكتاب

القسم الأول

تحت راية السلطان محمود نور الدين

القسم الثانى

السلطان المستقل عن مصر والشام

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

كتب أخرى للمؤلف

صدرت فى دار المعارف بمصر

١ – تحقيق وتعليق :

التحف والهدايا : للخالديين فى مجموعة ذخائر العرب

شرح ديوان صريع الغوانى مسلم ابن الوليد » » » »

شرح ديوان أبى فراس الحمدانى . تحت الطبع

* * *

– تأليف :

شاعر الشعب ، حافظ إبراهيم (اقرأ)

جان جاك روسو – (اقرأ)

الغزل – فى مجموعة « فنون الأدب العربى » (جزءان

الوصف – » » » » »

المديح – » » » » »

الهجاء – » » » » »

عبد الرحمن الكواكبى – فى مجموعة «نوابغ الفكر العربى » .

الأمير شكيب أرسلان – حياته وآثاره . فى « مكتبة الدراسات الأدبية » تحت الطبع

سير وتراجم

إن تاريخ الأمم والشعوب حافل بألوان من البطولة والتضحية والنبوغ تجلوها لنا كتب السير والتراجم وتفصل لنا الحوادث التى أحاطت بأصحابها وتعرض علينا دقائق حياتهم فنوثق معرفتنا بهم ونكبر عبقرياتهم وتتخذهم مثالا يؤتثر فى عظائم الأمور .

وفى مطبوعات دار المعارف مجموعة كبيرة من كتب السير والتراجم يجدر بكل قارئ عربى أن يطلع عليها وينطبع بها نذكر منها على سبيل المثال :

● صور من حياة الرسول	للأستاذ أمين دويدار	الثمن ١٢٠ م
● عثمان	للدكتور طه حسين	« ٥٠
● على وبنوه	للدكتور طه حسين	« ٦٠
● المعتمد بن عباد	للدكتور عبد الوهاب عزام	« ٢٥
● شكرى القوتلى	للأستاذ عبد اللطيف اليونس	« ٤٠
● من آثار مصطفى عبد الرازق	قدم لها الدكتور طه حسين	« ٧٥

فضلا عن مجموعة « مشاهير العرب » ومجموعة « أعلام التاريخ »

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

مارس ١٩٦٠ الثمن ٥٠ مليما